

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع البلاغة

تم التحويل حسب ترخيص
لجنة
مراجعة
الكتاب



الاستعارة عند عبدالقاهر الجرجاني

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة العربية

إعداد الطالبة
زينب يوسف عبدالله حاشم

إشراف الدكتور
علي العمارة

١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

لقد جاء القرآن بلسان عربي مبين فأدرك الصحابة إعجازه بسليقتهم العربية ، ثم اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ودخل الإسلام من ليس من العرب ، وشعروا أنهم بحاجة إلى اكتساب حسن العربية بالتعلم لفهم معاني القرآن ومعرفة السر في إعجازه ، فظهرت الكتب التي قصدت لبيان نواحي الإعجاز فيه ، وفي هذه الكتب عرضت أمهات المسائل البلاغية ، نأخذ منها مانأخذ وندع ماندع . . نقارن بين النصوص بعضها ببعض . . ونجتهد . . ونرجح .

اخترت من بين هذه الكتب : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للإمام الشيخ عبدالقاهر الجرجاني . . واخترت من بين المسائل البلاغية : الاستعارة موضوعاً لرسالتي .

بدأت بمقدمة أوضحت فيها سبب اختياري هذا الموضوع ، ثم تتبعته مفهوم الاستعارة عند العلماء إلى مجيء عبدالقاهر الجرجاني ، إذ تناولت الاستعارة عنده - قدر جهدي - من جوانب متعددة ، خصصت لكل جانب فصلاً مستقلاً .

الفصل الأول : يتكون من جزأين ، تظهر لنا - في الجزء الأول - عقلية الإمام المتميزة من فهمه لمعنى الاستعارة عندما يرفض كونها مجرد نقل ويثبت فكرة الادعاء بشتى الطرق .

أما الجزء الثاني : فقد ظهر فيه تفصيل الإمام في كون الاستعارة من قبيل المجاز اللغوي من جهة ومن قبيل المجاز العقلي من جهة أخرى .

الفصل الثاني : مكان الاستعارة بين التشبيه والتمثيل :

لما كان التمثيل تشبيهاً إلا أنه خاص فقد رأيت أن أجمع بين التشبيه والتمثيل عند الحديث عن الفروق بينهما وبين الاستعارة .

الفصل الثالث : أقسام الاستعارة :

لقد قسم الإمام الاستعارة تقسيمات عدة ، باعتبارات متعددة :

أولاً : قسمها من حيث الفائدة ، وعدمها .

ثانياً : الاستعارة في الاسم والاستعارة في الفعل .

ثالثاً : تقسيم باعتبار الجامع والطرفين .

الفصل الرابع : قيمها الجمالية والبلاغية وأسباب حسنها :

لقد أوضح الإمام علو شأنها على بقية ألوان البديع وبيّن قيمتها وفضلها وما تحدثه في الكلام من جمال .

الفصل الخامس : الاستعارة ومقتضيات النظم مع بيان أثرها في الدرس اللغوي :

يظهر فيه حديث عن الارتباط الوثيق بين النحو والنظم ، ثم بيان أن الاستعارة والكناية والتمثيل من مقتضيات النظم ، وأثرها على اللغة واضح ، فاللغة تتطور ومن أسباب تطورها المجاز .

الفصل السادس : يتكون من جزأين : تحدثت في الأول عن الاستعارة بين

المعنى التخيلي والمعنى العقلي .

الجزء الثاني : جهود الإمام بين سابقه ولحقه .

الفصل السابع : صلة الصورة في النقد الحديث بالاستعارة عند عبدالقاهر :

إن لفظ « الصورة » لفظ شامل ، فالتشبيه صورة ، والمجاز صورة ، والكتابة صورة ، وكل التعبيرات إنما هو صورة مبادخلنا من معان . . وهكذا نجد أن مفهوم الصورة بالمعنى الكلي عند الجرجاني يلتقي مع مفهومها بهذا المعنى لدى المحدثين .

ثم ختمت بحثي بتلخيص ماورد فيه .

وإني إذ أتقدم بهذه الرسالة لعلى يقين بأنها لن تصل إلى درجة الكمال ، إذ الكمال لله وحده ، لكن . . هذا جهدي والله المستعان .

ولا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر لأستاذي الفاضل : د . على العماري ، المشرف على رسالتي ، الذي لم يأل جهداً لمساعدتي وفتح أبواب المعرفة أمامي .

وللأستاذين المناقشين : د . عبداللطيف خليف . د . عبدالعظيم المطعني . اللذين تفضلاً بقبول المناقشة وتقديم الملاحظات القيمة .

ومن ثم شكري لمن منحوني فرصة البحث العلمي في هذه الجامعة الكريمة . فجزى الله الجميع عني خير الجزاء .

المشرف



الطالبة

شيماء يوسف هاشم

فب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة ، أحمده سبحانه وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيد البشرية أجمعين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ،
ويعد . .

فاللغة العربية « كانت لغة أميين وثنيين جاهليين ، فظهر فيها أكمل الأديان ، فكانت له أكمل مظهر ، وتجلى لهم العلم فكانت له خير مجل ، وصارت بذلك لغة مجلّ الدين والشريعة ، وعلوم العقل والطبيعة »^(١) .

وعلم البيان علم على درجة كبيرة من الأهمية يتفرّع عنه ويتصدر موضوعاته موضوع هذه الرسالة ، وهو : الاستعارة .

أسلوب بلاغي شاع في الأدب العربي والقرآن الكريم والحديث الشريف فكان له أكبر الأثر في إيضاح الفكرة وتوليد الصور ، فكان جديراً بأن يدرس ويبحث في أسرار جماله ، وقد قام كثير من علماء البلاغة العربية بهذا الدور وبذلوا في ذلك مجهوداً لا يُنكر .

وإن كانت هذه الدراسات قد حدثت فيها بعض الخلط أو التقصير فإن لدارسيها العذر في ذلك ، إذ كانت بمثابة البذور الأولى لهذا الفن ، وهذه هي طبيعة كل بداية .

ولكن ما إن يأتي القرن الخامس الهجري حتى يأتي عالم له الفضل في تأسيس قواعد هذا الفن وتوضيح براهينه وترتيب أفانينه^(٢) .

(١) أسرار البلاغة ، مقدمة السيد رشيد رضا ، الطبعة الثانية .

(٢) انظر كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز ، العلوي ، المقدمة .

لقد أطلال الشيخ عبدالقاهر الجرجاني الحديث عن الاستعارة وبذل قصارى جهده في العناية بأمرها ، ولم يكن هذا إلا لأمرين :

الأول : عامّ ، يشمل علوم البلاغة . يقول السيد رشيد رضا « ظهر ضعف اللغة في القرن الخامس و كانت في ريعان شبابها ، وأوج عزّها وشرفها ، وكان أول مرض ألمّ بها الوقوف عند ظواهر قوانين النحو ، ومدلول الألفاظ المفردة ، والجمال المركبة ، والانصراف عن معاني الأساليب ، ومغازي التركيب ، وعدم الاحتفال بتصريف القول ومناحيه ، وضروب التجوز والكناية فيه ، وهذا مابعث عزيمة الشيخ عبدالقاهر الجرجاني إمام علوم اللغة في عصره إلى تدوين علم البلاغة ، ووضع قوانين للمعاني والبيان كما وضعت قوانين النحو عند ظهور الخطأ في الإعراب فوضع هذا الكتاب في البيان ، ومن فاتحته يتنسم القارئ أن دولة الألفاظ كانت قد تحكمت في عصره واستبدت على المعاني وأنه يحاول بكتابه تأييد المعاني ونصرها ، وتعزيز جانبها وشد أسرها »^(١) .

الثاني : خاص بالاستعارة ، وهو قيمتها ومكانتها بين سائر الأساليب ، يقول الإمام في ذلك : « هي أمد ميداناً وأشدّ افتناناً وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعة ، وأبعد غوراً ، وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً ، من أن تجمع شعبها وشعوبها ، وتحصر فنونها وضروبها ، نعم وأسحر سحراً . . . وأهدى إلى أن تهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال ، وعني بها الكمال وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدّت في الشرف والفضيلة باعاً لا يقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر . . . وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس إليها الدين والدنيا . . . وهي أجل من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها ، وتستوفى جملة جمالها »^(٢) .

(١) أسرار البلاغة ، مقدمة السيد رشيد رضا .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٠ تحقيق رشيد رضا .

ولما رأيت شيوع هذا الفن في الأدب العربي أردت أن أكشف عما تميّز به دون
سائر الأساليب ، فلم أجد أفضل من توضيح ما قدمه الإمام الشيخ عبدالقاهر
الجرجاني فقامت بهذه الدراسة المتواضعة متبعة فيها الخطة الآتية :

تتبع في أقوال علماء البلاغة في الاستعارة منذ بدء الحديث عنها .

الفصل الأول :

يتكون من جزأين : الأول : أوضحت فيه مفهوم الاستعارة عند عبدالقاهر
الجرجاني ، والثاني : بيان رأي عبدالقاهر في الاستعارة : هل هي من المجاز
العقلي أو اللغوي .

الفصل الثاني :

بيان مكانة الاستعارة بين التشبيه والتمثيل .

الفصل الثالث :

أقسام الاستعارة والفروق بينها .

الفصل الرابع :

قيمتها الجمالية والبلاغية وأسباب حسنها .

الفصل الخامس :

الاستعارة ومقتضيات النظم مع بيان أثرها في الدرس اللغوي .

الفصل السادس :

يتكون من جزأين : الأول : الاستعارة بين المعنى التخيلي والمعنى العقلي ،
والثاني : جهود عبدالقاهر بين السابقين واللاحقين .

الفصل السابع :

صلة الصورة في النقد الحديث بالاستعارة عند عبدالقاهر الجرجاني .

[تمهيد]

الاستعارة وتطورها

ظهر هذا الفن منذ القدم في الشعر العربي ، لكن ظهور المصطلح كان متأخراً
وذلك بعد بحوث العلماء في الرد على الشبهات التي أثيرت حول القرآن الكريم وبعد
المفاضلة بين الشعراء في العصور المختلفة .

أبو عبيدة* :

ومع أن كتاب أبي عبيدة أشبه بأن يكون تفسيراً للمفردات فقد وردت فيه مسائل
بلاغية أفاد منها علماء البلاغة .

وكلمة « مجاز » في كتاب أبي عبيدة (مجاز القرآن) لاتعني بالضبط المعنى
الذي وصل إلينا ، إذ إننا نلاحظ أن هذه الكلمة أخذت معاني عدة منها :

١ - الأسلوب أو طريقة التعبير .

٢ - مرادفة لكلمة « معنى » .

٣ - تفسير طرق العرب في كلامهم .

وهو بهذا يكون قد فهم « المجاز » بالمعنى العام الذي فهمه البلاغيون وهو :
الطريق ، فكان معنى المجاز عنده : الطريق الذي يصل بنا إلى فهم معاني القرآن
الكريم .

أما موضوع حديثنا « الاستعارة » فقد ورد هذا اللفظ صريحاً في كتابه
« النقااض » حيث يقول : « قال الفرزدق لجبرير :

لاقوم أكرم من تميم إذ غدت عوذ النساء يسقن كالأجال .

قوله « عوذ النساء » هن اللاتي معهن أولادهن ، والأصل في « عوذ » في الإبل
التي معها أولادها فنقلته العرب إلى النساء وهذا من المستعار وقد تفعل العرب
ذلك كثيراً ، قال « والآجال » الفرق من البقر والظباء واحدا « إجل »^(١) .

(*) معمر بن المثنى التيمي . المتوفى سنة ٢٠٩ هـ .

(١) النقااض ص ٢٧٥ .

فالاستعارة عند أبي عبيدة هي : الانتقال بالكلمة من معناها الأصلي الذي وضعت له إلى معنى لم توضع له .

الجاحظ* :

يلحظ الجاحظ الاستعارة في كتابيه : البيان والتبيين و الحيوان ، يقول في الأول « وقال آخر :

يادار قد غيرها بلاها كأنما بقلم محاهها
خزتها عمران من بناها وكّر ممساها على مغناها
وطفت سحابة تغشاهها تبكي على عراسها عيناها

قوله : « ممساها » يعني مساءها . و « مغناها » موضعها الذي أقيم فيه . والمغاني : المنازل التي كان بها أهلوها ، وطفقت : يعني ظلت تبكي على عراسها عيناها ، عيناها هاهنا للسحاب . وجعل المطر بكاءً من السحاب على طريق الاستعارة ، وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه و يقال لكل جوبة منفتقة ليس فيها بناء : عَرَصَه^(١) .

ويقول أيضاً في قوله تعالى : ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾^(٢) ، والعذاب لا يكون نزلاً ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سمي باسمه . وقال آخر :

فقلت أطعمني عمير تمرأ فكان تمرى كهرة وزرا
والتمر لا يكون كهرة ولازبرأ ، ولكنه على ذا^(٣)

ويسمى الاستعارة باسم البدل وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾^(٤)

(*) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . المتوفى سنة ٢٥٥هـ .

(١) البيان والتبيين . ج ١ ص ١٥٣ . (٢) سورة الواقعة ، آية < ٥٦ > .

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٣ .

(٤) سورة طه ، آية < ٢٠ > .

إذ إن « الانسياب » هو الأصل في الحية فترك واستعمل « السعي » بدلا منه -
يقول الجاحظ :

» . . . لكان ذلك مما يجوز على التشبيه والبدل وأن قام الشيء مقام الشيء
أو مقام صاحبه فمن عادة العرب أن تشبه به في حالات كثيرة ، قال الله تعالى :
﴿ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ والعذاب لا يكون نزلاً ، ولكنه أجراه مجرى كلامهم كقول
حاتم حين أمره بفصد بعير ، وطعنه في سنامه - قال : هذا فصده «^(١)» .
فالجاحظ بتعليقاته على الآيات والأبيات وتعريفه للاستعارة قد جعلها قريبة إلى
حد ما من المعنى اللغوي الذي يكون بنقل اللفظ من معنى عُرِفَ به لغوياً إلى معنى
آخر لم يُعرف به .

ابن قتيبة* :

يقول في تعريف الاستعارة « فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة ، إذا
كان المسمى بها بسبب من الأخرى ، أو مجاوراً لها ، أو مشاكلاً »^(٢) ويمثل لها
بقول رؤية : وجف أنواء السحاب المرتزق .
وقول الشاعر^(٣) :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقول العرب : ضحكت الأرض . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾^(٤)
وكما هو واضح من تعريف ابن قتيبة للاستعارة ، والأمثلة التي يستشهد بها أن

(*) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة . المتوفى سنة ٢٧٦هـ .

(١) الحيوان ج ٤ ص ٢٧٣ . (٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٣٥ .

(٣) البيت لمعاوية بن مالك - كما في المفضليات .

(٤) سورة القلم ، آية < ٤٢ > .

تحديده لأنواع المجاز - على مذاهب إليه علماء البلاغة المتأخرون - لم يكن دقيقاً ، إذ إن المثالين الأولين من المجاز المرسل والمثال الثالث من الاستعارة ، والرابع من الاستعارة التمثيلية .

المبرد* :

يعقد المبرد باباً طويلاً في التشبيه ، ويشير أثناء حديثه عن التشبيه إلى الاستعارة لكن دون التصريح بها فيقول : « وأملح ما قيل في هذا المعنى وأجوده قول امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير في وكناتها
فجعله للوحش كالقيد »^(١) .

كما أشار أيضاً إلى المجاز المرسل في قوله « وقول جل وعز ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْرُ خَمْرًا ﴾^(٢) أي أعصر عنباً فيصير إلى هذه الحال »^(٣) والعلاقة هنا اعتبار ماسيكون .

ثعلب** :

يعرف الاستعارة بقوله « أن يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواه » ومثل بقول امرئ القيس في صفة الليل فاستعار وصف الجمل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

(*) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد . المتوفى سنة ٢٨٥ هـ .

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) سورة يوسف ، آية < ٣٦ > .

(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٧٨ .

(**) أبو العباس أحمد ثعلب . المتوفى سنة ٢٩٦ هـ .

ثم يذكر شواهد بعد ذلك أكثرها من الاستعارات المكنية دون أن يذكر اسمها فيذكر استعارة زهير « حيث ألفت رحلها أم قشعم » ويعلق : ولا رحل للمنية ، واستعارة تأبط شراً « تهللت نواجذ أفواه المنايا » ويعلق : ولا نواجذ للمنية ولا قم .

ويذكر شاهداً للاستعارة التصريحية دون أن يذكر اسمها قول أعرابي يصف رجلاً :

وداهية جرها جارم جعلت رداءك فيها خمراً

يقول قنعت بسيفك رؤوس أبطالها يشير إلى استعارة الرداء للسيف^(١) .

ابن المعتز* :

يذكر ابن المعتز الاستعارة في باب البديع ويصرح باسمها ويعرفها ، يقول « من الكلام البديع قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِي حَكِيمٌ ﴾^(٢) ومن الشعر البديع قوله :

« والصبح بالكوكب الدري منحور »

وإنما هو استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عُرف بها مثل : « أم الكتاب » ومثل « جناح الذل » ومثل قول القائل : الفكرة مخ العمل ، فلو كان قال : لبّ العمل لم يكن بديعاً^(٣) .

ويمثل لها فيقول : « ومن الاستعارة قول امرئ القيس :

(١) علوم البلاغة ، نشأتها وتطورها ، الفصل الأول ، ص ٢٩ - ٣٠ ، د . علي العماري .

(*) عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد . المتوفى سنة ٢٩٦ هـ .

(٢) سورة الزخرف ، آية ٤٤ .

(٣) كتاب البديع لابن المعتز ص ٢ .

وليل كموج البحر أرخى سدوله
فقلت له لما تمطى بصلبه
على بأنواع الهمنوم لبيتلي
وأردف أعجازاً وناء بكلكل

هذا كله من الاستعارة لأن الليل لاصلب له ولا عجز «^(١)» .

ومن الجدير بالذكر ملاحظة أن ابن المعتز يجعل من الاستعارة التشبيه الذي ذكر طرفاه وحذف منه الوجه والأداة ، وهو ماسماه المتأخرون بالتشبيه البليغ ، كما هو ظاهر من أمثلته : الفكرة مخ العمل ، وقول علي رضي الله عنه : العلم قفل مفتاحه السؤال ، وقول عائشة رضي الله عنها : كان عمله ديمة^(٢) .

الحاتمي* :

يعرف الاستعارة بقوله : « وحقيقة الاستعارة أنها نقل كلمة من شيء قد جعلت له إلى شيء لم تجعل له »^(٣) .

إذن فالحاتمي هو أول من بدأ بفكرة « النقل » ، والتي تعني : نقل الكلمة من معنى قد وضعت له في اللغة إلى معنى لم توضع له ، لكن دون أن يشير إلى القرينة .

كما أنه يطلق الإرادف^(٤) على الاستعارة ويعده نوعاً من أنواعها حيث يقول :
« ألا ترى إلى قول امرئ القيس :

وقد اغتدى والظير في وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكل

(١) نفس المرجع . ص ٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٥ .

(*) أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي الكاتب ، المتوفى سنة ٢٨٨ هـ .

(٣) الرسالة الموضحة ص ٦٩ .

(٤) يطلق بعض علماء البلاغة الإرادف على الكناية .

وهذا النوع من الاستعارة يسمى الإرداف ، وهو أن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الذي يدل على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له . فإذا دلّ على التابع دلّ على المتبوع . ومثل ذلك « قيد الأوابد » وذلك أنه أراد وصف الفرس بالسرعة وأنه جواد إذا أرسلته على الصيد كان كالقيد لها وكانت كالمقيدة له ، وذلك سبقه وميعة إحضاره ، يتبعهما أن تكون الأوابد كالمقيدة له ، وحقيقة « قيد الأوابد » مانع الأوابد وحابسها . و « قيد الأوابد » أبلغ وأحسن . وقيل « قيد المتين » للأسير ، وقيل في وصف الفرس « قيد الرهان » ، وقيل : التواظر قيد الخواطر وقيد العيون ، وكل ذلك تركيب على لفظ الفرس ^(١) .

قدامة بن جعفر *

تحدث قدامة عن الاستعارة دون أن يورد لها تعريفاً ، فقال : « قال أوس :
 وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا
 فسمى الصبي تولباً وهو ولد الحمار . مثل قوله الآخر ^(٢) :
 وما رقد الولدان حتى رأيتهم على البكر يمر به بساق وحافر
 فسمى رجل الإنسان حافراً . فلن ماجرني هذا المجري من الاستعارة قبيح
 لا عذر فيه .

(١) الرسالة الموضحة ص ٩٢ .

(*) قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، الكاتب البغدادي ، المتوفى سنة ٣٣٧ هـ .

(٢) هو جبيهاء الأشجعي . كما ورد في الجمهرة ج ٣ ص ٤٩٠ . وقد نسبته الجرجاني في الأسرار لمزرد .

وقد استعمل كثير من الشعراء الفحول المجيدين أشياء من الاستعارة ليس فيها
شناعة كهذه وفيها لهم معاذير إذ كان مخرجها مخرج التشبيه ، فمن ذلك قول
امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكل كل^(١)
ويظهر تأثر قدامة بتقسيماته المنطقية حين عاب الاستعارة في التشبيه ، ولو نظر
إلى المعنى لوجد أنه يقتضي حمل الاستعارة في البيتين^(٢) على التشبيه^(٣) .

علي بن عبدالعزيز الجرجاني* :

يعرف الاستعارة بقوله : « وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن
الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها ، وملاكها تقريب الشبه ومناسبة
المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى ، حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا
يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر »^(٤) .

فيبين أن الاستعارة يُكتفى فيها بأحد الطرفين على أن تكون هناك مناسبة بينهما
وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ، وهذا الشرط هو الفرق بين
الاستعارة الحسنة والاستعارة القبيحة ، يقول : « وقد كان بعض أصحابنا يجاريني
أحياناً أبعد أبو الطيب فيها الاستعارة ، وخرج على حد الاستعمال والعادة فكان
مما عدّه منها قوله :

(١) نقد الشعر ص ١٧٥ . (٢) بيتا أوس والأشجعي .

(٣) وهذا ماذهب إليه عبدالقاهر في الأسرار عند حديثه عن الاستعارة اللفظية النازرة إلى
المعنوية ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

(*) هو الأديب الناقد علي بن عبدالعزيز الجرجاني ، المتوفى سنة ٣٦٦ هـ .

(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٤١ .

مَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الطَّيِّبِ مَقْرِيهَا وَحَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْيَلْب

وقوله :

تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هَمٌّ مَلَأَ فُؤَادَ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا

فقال : جعل للطيب والبيض واليلب قلوباً وللزمان فؤاداً ، وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد ، وإنما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من المناسبة وطرق من الشبه والمقاربة ^(١) .

فاستعارة الفؤاد للزمان ليست معيبة في ذاتها وإنما عيبت هنا لعدم اقتضاء المعنى لها ، فالشاعر يريد أن يمدح ممدوحه بعلو الهمة وهذا معنى حسن ، والزمان لم يُعرف عنه همة في الجد وإنما تعورف على إسناد المصائب والدوائر له ، ومن هنا يصح حمل قول الجرجاني : بعدم وجود شبه قريب ولا بعيد . أما رفض استعارة الفؤاد للزمان مطلقاً وعدّها من الاستعارات غير الجيدة فغير صحيح ، يؤكد هذا استحسانه لكثير من الاستعارات البعيدة .

وقد كان القاضي أول من أخرج التشبيه البليغ من باب الاستعارة ، وسيرد ذلك - إن شاء الله - عندما يأتي الحديث عن التشبيه والاستعارة .

الآمدي* :

يقول الأمدي في الاستعارة : « وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه ، أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سبباً من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذٍ لائقة بالشئ الذي استعيرت له وملأمة لمعناه » ^(٢) .

(١) نفس المرجع ص ٤٢٩ .

(*) أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي البصري ، المتوفى سنة ٣٧٠ هـ .

(٢) الموازنة بين الطائيين ص ٢٣٤ .

لقد أدخل المجاز المرسل في الاستعارة وذلك في قوله : « أو كان سبباً من أسبابه »^(١) ، المهم أنه يشترط أن تكون هناك صلة بين المستعار له والمستعار منه ويضرب لذلك الأمثلة ، منها قوله : « نحو قول امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بجـوزه وأردف أعجازاً وناء بكلـكل »^(٢)

ويبين أن هذه الاستعارة من أجود أنواع الاستعارة . يقول : « وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعاني ولا المجازات وهو في غاية الحسن والوجود والصحة وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل فذكر امتداد وسطه ، وتناقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً ، وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويتقرب تصرّمه ، فلما جعل له وَسْطاً يمتد وأعجازاً رادفه للوسط وصدرأً متناقلأً في نهوضه حَسُنَ أن يستعير للوسط اسم الصلب ، وجعله متمطياً من أجل امتداده لأن تمطى وتمدد بمنزلة واحدة ، وصلاح أن يستعير للصدر اسم الكلـكل من أجل نهوضه ، وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة وأشد ملائمة لمعناها لما استعيرت له »^(٣) .

فاستحسنه للاستعارة إنما كان لمناسبتها للمعنى الذي أراده الشاعر ، وهذا هو معنى القرب الذي ذكره .

(١) سبقه ابن دريد في الجمهرة ، وسيرد في ذلك - إن شاء الله - في فصل الاستعارة .

(٢) الموازنة بين الطائيين ص ٢٣٤ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٣٤ .

الرماني* :

يعرف الاستعارة بأنها : « تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإيانة . . . وكل استعارة فلا بد فيها من أشياء : مستعار ومستعار له ومستعار منه . . . وكل استعارة بليغة فهي جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه ، إلا أنه بنقل الكلمة ، والتشبيه بأداته الدالة عليه في اللغة »^(١) .

فيوضح أن الاستعارة نقل للكلمة من معنى وضعت له إلى معنى لم توضع له في أصل اللغة ، ويحدد أركانها : مستعار ، مستعار له ، مستعار منه ، والاستعارة البليغة عنده هي تلك الاستعارة التي تجمع بين شيئين شريطة أن تكون بينهما صلة .

وقد فرّق بين التشبيه والاستعارة بوجود أداة التشبيه . كما أنه لم يغب عنه ذكر فائدة الاستعارة ألا وهي : الإيانة .

ولا يترك الرماني كل هذه الأفكار جافة ، بل نجده يضرب أمثلة للاستعارات البليغة في القرآن العظيم فيقول : « ونحن نذكر ما جاء في القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ۖ ﴾ . حقيقة « قدمنا » هنا « عمدنا » ، وقدمنا أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر ، لأنه من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم »^(٢) .

(*) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني ، المتوفى سنة ٣٨٦ هـ .

(١) النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل ص ٧٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٩ - ٨٠ .

العسكري* :

يعقد للاستعارة فصلاً في الباب التاسع الذي جعله لفنون البديع افتتحه بذكر تعريفها : « الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض »^(١) .

وكما نقل عن الرماني أقسام التشبيه الأربعة دون أن يشير إليه فقد نقل عنه أيضاً فكرة تعبير الاستعارة عما تعجز الحقيقة عن التعبير عنه ، ومما يؤكد هذا إشارة صاحب العمدة إلى رأي الرماني^(٢) .

وقد ذكر أمثلة للاستعارة من القرآن والشعر ذاكراً ما أوجبه بلاغتها من بيان لانتوب منابه الحقيقة ، كقوله تعالى :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾^(٣) .

يقول : « معناه سنقصد . . . لأن القصد لا يكون إلا مع الفراغ ثم في الفراغ هاهنا معنى ليس في القصد وهو التوعد والتهديد . . . ألا ترى قولك سأفرغ لك يتضمن في الإبعاد ما لا يتضمنه قولك سأقصد لك »^(٤) .

وقد أدخل المجاز المرسل ضمن الاستعارة عندما عدّ قول الشاعر :

وجفّ أنواء السحاب المرتزق^(٥) .

وقول الشاعر :

(*) الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

(١) الصناعتين للعسكري ص ٣٩٥ .

(٢) انظر العمدة ج ١ ص ٢٧٢ .

(٣) سورة الرحمن ، آية ٣١ .

(٤) الصناعتين للعسكري ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٥) الشاعر هو رؤية بن العجاج .

إذا سقط السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كانوا غضاباً^(١)
من الاستعارة .

ابن جنى* :

عقد باباً في الفرق بين الحقيقة والمجاز ، فعرف الحقيقة بأنها : « ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة »^(٢) . والمجاز : « ما كان يصد ذلك »^(٣) . وبهذا وسع دائرة المجاز فأدخل فيها التشبيه البليغ وذلك عدده قول « هو بحر » على الفرس من قبيل الاستعارة .

ثم بين فائدة المجاز في اللغة فقال : « وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي : الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه ، فإن عَدِمَ هذه الأوصاف كانت الحقيقة البينة »^(٤) ، ومثل لهذه الفائدة بشواهد من التشبيه البليغ - كما سبق أن ذكرنا - والمجاز المرسل والاستعارة والمجاز العقلي شارحاً لهذه الفوائد ، فحين يذكر استعارة التغلغل في قول الشاعر :

شكوت إليها حبّها المتغلغلا فما زادها شكواي إلا تدللا

يقول : « وأما التشبيه فلأنه شبهه مالا ينتقل ولا يزول بما يزول وينتقل . وأما المبالغة والتوكيد فلأنه أخرجه عن ضعف العرضية إلى قوة الجوهرية »^(٥) .

(١) الشاعر هو معاوية بن مالك .

(*) أبو الفتح عثمان بن جنى ، المتوفى سنة ٣٩٢ هـ .

(٢) الخصائص لابن جنى ، ج ٢ ص ٤٤٢ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٤٤٢ .

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٤٤٢ .

(٥) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٤٤٤ .

ابن سنان الخفاجي* :

كان القرن الخامس الهجري يمثل مرحلة النضج في الدراسات البلاغية . ففي حديث ابن سنان عن الفصاحة وشروطها نجد ملحوظات بيانية ناضجة ، وما يعيننا منها هنا : حديثه عن الاستعارة الذي ذكره في شروط فصاحة الكلام حيث عدّ منها حسن الاستعارة ، وذكر تعريف الرمانى لها ثم علق على هذا التعريف ، فقال : وتفسير هذه الجملة أن قوله عز وجل : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ استعارة ، لأن الاشتعال للنار ، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب ، فلما نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه .. فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان ، ولا بد من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها ، لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى' . . . والأصل في ذلك ما أفاده التشبيه في الاستعارة من البيان ^(١) .

فقد علل سبب البيان الذي تفيدته الاستعارة (وهو بالطبع ليس البيان بمعنى الوضوح فحسب ، بل بمعنى ظهور معنى لم يكن يظهر لولا الاستعارة) وأرجعه إلى قيامها على التشبيه ولم يصرح من قبله بقيام الاستعارة على التشبيه وإن كانوا قد أشاروا ضمناً إلى اعتمادها عليه في تحليلهم للأبيات . وفرّق بين الاستعارة والتشبيه بعد أن رفض الفرق الذي ذكره أبو الحسن الرمانى من أن الفرق بينهما يكمن في وجود أداة التشبيه فقال : « وليس يقع الفرق عندي بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط ، لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعية له ويكون حسناً مختاراً ، ولا يعده أحد في جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه ، ومن هذا قول الشاعر ^(٢) :

(*) أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ، المتوفى سنة ٤٦٦ هـ .

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) أبو القاسم الزاهي .

سفرن بدوراً وانتقبن أهلة
ومسنن غصوناً والتفتن جآذراً
وقول الآخر^(١) :

وأسبلت لؤلؤاً من نرجس فسقت
ورداً وعضت على العناب بالبرد
وكلاهما تشبيه محض وليس باستعارة ، وإن لم يكن فيهما لفظ من ألفاظ
التشبيه ، وإنما الفرق بين الاستعارة والتشبيه ما حكيناه أولاً^(٢) .
فجعل الفرق بينهما في ظهور طرفي التشبيه في « التشبيه » واختفاء أحدهما في
« الاستعارة » ، وإن كان قد اشتبه عليه الأمر فعدّ قول الشاعر : « وأسبلت
لؤلؤاً » من التشبيه وهو من الاستعارة ، وقد يكون ذلك لوضوح المشبه .
وأشار إلى أركان الاستعارة ، مشيراً إلى بلاغة التعبير الاستعاري عن التعبير
بالحقيقة .

وكغيره فضل من الاستعارات ما كان التلاؤم بين طرفيها قوياً والشبه واضحاً ،
وذكر من أسباب بُعد البعيد المطروح منها : البعد بين طرفيها وإبتناء الاستعارة على
أخرى . وجعل بين مرتبة الغريب المختار والبعيد المطروح مراتب متعددة أدخل فيها
بعض أمثلة البعيد كقول الشاعر :

فقللت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل
وقول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعزى افراس الصبا ورواحله
الذين فضلها الآمدي وعدّهما في غاية الحسن والجودة والصحة .
ومما فضله قول طفيل :

وجعلت كورى فوق ناجية
يقتات شحم سنامها الرجل

(١) الواواء الدمشقي .

(٢) سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

وقول ذي الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود والتوى
ولفّ الثريا في ملاءته الفجر
لقيامهما على تشبيه واضح .

ولمزيد من توضيح رأيه ، يعمد - على طريقة شبيهة بطريقة عبدالقاهر - إلى المقارنة بين استعارتين في سياقين مختلفين ليبيّن حسن إحداها وقبح الأخرى بناءً على المقياس الذي وضحه وهو قرب التشبيه أو بعده ، فيفضل قول أبي نصر بن نباتة :

حتى إذا بهر الأباطح والرؤى
نظرت إليك بأعين النوار
على قول أبي تمام :

قرّت بقران عين الدين وانشرت
بالأشترين عيون الشرك فاصطلما
ويمضي مفاضلاً بين استعارات متعددة محتكماً إلى ذوقه الأدبي بجانب القاعدة التي وضعها .

ابن رشيق* :

يعد ابن رشيق الاستعارة من البديع وذلك في قوله : « الاستعارة أفضل المجاز وأول أبواب البديع . . . »^(١) .

وقد فضّل القرب في الاستعارة وذلك من خلال تفضيله للاستعارة - التصريحية على المكنية دون أن يسميها - في قول ذي الرمة ولبيد ، ومن خلال تعليقه على بعض الأبيات . يقول ذو الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود والتوى
ولفّ الثريا في ملاءته الفجر

(*) الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ، المتوفى سنة ٤٥٦هـ .

(١) العمدة لابن رشيق ، ج ١ ص ٢٦٨ .

ويقول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها
ثم ذكر أقوال بعض المتقدمين عليه في الاستعارة مثل : القاضي الجرجاني
والرمانى وابن جنى .

ولما ذكر قول الرمانى بأن في الاستعارة بلاغة بيان لا تتوب منابه الحقيقة ، مما
يتبادر إلى الذهن معه أن اللجوء إلى المجاز يعني عدم قدرة ألفاظ اللغة على إيفاء
المعاني حقها ، فقد أشار إلى أن اللجوء إلى الاستعارة في لغة العرب إنما هو اتساع
في الكلام اقتداراً ودالة - بمعنى أن الألفاظ تفي بالتعبير عن معاني العرب ولكن
المجاز « في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة »^(١) .

وذكر الاستعارة التمثيلية باسم التمثيل ، ثم فرق بين الاستعارة المفردة والمركبة
وبين التشبيه بأنهما « بغير أدواته وعلى غير أسلوبه »^(٢) .

(١) نفس المرجع ص ٢٦٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٨٠ .

عبدالقاهر الجرجاني

ترجمة موجزة :

هو أبوبكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني ، ولد في مطلع القرن الخامس للهجرة في جرجان سنة ٤٠٠هـ ، وتوفي سنة ٤٧١هـ ، وقيل ٤٧٠هـ . من أعظم نقاد العرب في تاريخ الثقافة الأدبية العربية ، فهو واضع علم البلاغة باعتراف غير واحد من العلماء ، يقول صاحب الطراز « وأول من أسس من هذا العلم قواعده ، وأوضح براهينه وأظهر فوائده ، ورَتَّبَ أفانيه ، الشيخ العالم التحرير علم المحققين : عبدالقاهر الجرجاني . فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد . وهدَّ من سور المشكلات بالتسوير المشيد . وفتح أزهاره من أكامها . وفتق أزواره بعد استغلاقتها واستبهاها . فجراه الله عن الإسلام أفضل الجزاء وجعل نصيبه من ثوابه أوفر النصيب والإجزاء »^(١) .

أهم كتبه :

- ١ - أسرار البلاغة : عرض فيه أصول البيان : التشبيه والتمثيل ، والاستعارة والمجاز والكناية واختلاف أساليبها من حيث النظم والصياغة والتصوير .
 - ٢ - دلائل الإعجاز : تحدث فيه عن نظرية النظم محللاً نماذج من روائع الأدب مبيناً الفروق بين الأساليب من حيث وجهة رأيه في النظم .
- والملاحظ على الإمام أن حكمه على كثير من الأساليب يعتمد على ذوقه الأدبي الخالص ، مؤكداً أهمية توفر المعرفة والذوق عند المتلقي أيضاً ، كما أنه يعتمد أحياناً في حكمه على القواعد والضوابط .
- لقد بنى الإمام - بهذين الكتابين - صرحاً شامخاً للبلاغة العربية استفاد منه كل من جاءوا بعده إلى عصرنا الحاضر .

(١) الطراز : يحيى بن حمزة العلوي ، ج ١ ص ٤ .

الفصل الأول « أ »

الاستعارة

الاستعارة

لقد كان المجاز من أهم الأبحاث التي تناولها الإمام بالحديث ، حيث قسمه قسمين : لغوياً وعقلياً ، ثم قسم اللغوي قسمين : ما يبنى على التشبيه - وهو الاستعارة - ، ولفظ استعمل مكان لفظ آخر لعلاقة غير المشابهة - وهو ما عرف بعده بالمجاز المرسل - ، وقد أوضح الإمام أموراً مهمة في هذين القسمين . ففي القسم الأول : الاستعارة .

الاستعارة هفيضة وغير هفيضة :

يقول : « وموضع هذا الذي لا يفيد نقله حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة والتنوع في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها ، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان نحو وضع الشفة للإنسان والمشفر للبعير . . . فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها من غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره ونقله عن أصله وجاز به موضعه . . . فهذا ونحوه لا يفيدك شيئاً »^(١) .

ثم عاد في نهاية الأسرار ورجع عن هذه التسمية فقال : « وأعلم أن الواجب كان أن لا أعد وضع الشفة موضع الجحفلة والجحفلة في مكان المشفر ونظائره التي قدمت ذكرها في الاستعارة وأضن باسمها أن يقع عليه ، ولكنني رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدها فكرهت التشدد في الخلاف ، واعتددت به في الجملة ونهيت على ضعف أمره بأن سميته استعارة غير مفيدة »^(٢) يؤكد بذلك على أهمية

(١) الأسرار ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٧٣ .

وجود التشبيه ، فمالم يكن فيه تشبيه أسماء استعارة غير مفيدة . وخلاصة القول في هذا : أن الاستعارة لاتكون إلا حيث يكون التشبيه ، وقد أوضح الإمام أن هناك نقلاً لفائدة ولكنه لا يُعد استعارة لأنه لايعتمد على التشبيه - وهو القسم الثاني من المجاز - وذلك لما رأى الناس يخلطون بينه وبين الاستعارة ، فهاهو ذا ابن دريد يعقد باباً للاستعارات يقول فيه : « والوغى اختلاط الأصوات في الحرب ثم كثر ذلك فصارت الحرب وغى - قال الراجز :

اضمامة من ذودها الثلاثين لها وغى مثل وغى الثمانين*

يعني اختلاط أصواتها . . . والغيث المطر ثم صار مانبت بالغيث غيثاً ويقال أصابنا غيث ورعينا الغيث والسماء المعروفة ثم كثر ذلك حتى سمي المطر سماء وتقول العرب مازلنا نطأ السماء حتى أتيناكم أي مواقع الغيث . . . ، والظعينة أصلها المرأة في الهودج ثم صار البعير ظعينة والهودج ظعينة «^(١) . ومما لاشك فيه أن ليست العلاقة بين الحرب والوغى وبين النبت والغيث وبين الهودج والظعينة المشابهة ، فالنقل هنا لم يكن لأجل شبه بين المنقول والمنقول إليه بل « بسبب اختصاص وضرب من الملابس »^(٢) فكأن الحرب أمر عام والوغى من خصوصيات الحرب ثم أطلق الخاص (الوغى) على العام (الحرب) فكانت العلاقة « الخصوصية » . وفي قولنا « رعينا الغيث » المراد : النبات ، والغيث سبب في وجود النبات ، فالعلاقة بين المنقول والمنقول إليه « السببية » . وكذلك فلن العلاقة بين الهودج والمرأة « الحالّية » لأن المرأة تحل في الهودج .

(*) اضممامة : جماعة من الناس ليس أصلهم واحد لكنهم لفيف .

(١) الجهمرة لابن دريد ج ٣ ص ٤٣٣ .

(٢) الأسرار ص ٣٦٩ .

وقد ذكر ابن دريد فيما ذكر أموراً هي قبيل الاستعارة كقوله « والظماً العطش وشهوة الماء ثم كثر ذلك فقالوا ظمئت إلى لقائك »^(١) فاشتياق الإنسان وحاجته لرؤية صديق كاحتياج الإنسان الظمآن إلى الماء .
هذا وقد أشار عبدالقاهر إلى عالم آخر خلط بين النوعين وهو الآمدى . يقول الإمام : « ثم قال^(٢) : ألا ترى إلى قول مهلهل :

واستب بعدك يا كليب المجلس

على الاستعارة . فأطلق لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون في الأمور ، وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه بل على حد وقوع الشيء على ما يتصل به وتكثر ملاسته إياه ، وأي شبه يكون بين القوم ومكانهم الذي يجتمعون فيه ؟ إلا أنه لا يعتد بمثل هذا فإن ذلك قد يتفق حيث ترسل العبارة »^(٣) .

فواضح أن عبدالقاهر يفتن إلى المجاز المرسل دون أن يسميه تسمية صريحة ، وعدم وجود الشبه بين القوم ومكانهم أخرج الكلام من باب الاستعارة فكأن « التشبيه تقييد » و « عدم التشبيه » إرسال للعبارة عند عبدالقاهر إذ يقول : « فلن ذلك قد يتفق حيث ترسل العبارة » .

والقسم الأول - الاستعارة - وهو موضوع بحثنا ، قد أولاه عبدالقاهر اهتماماً بالغاً وفصله تفصيلاً لم يسبق إليه أحد من علماء البلاغة .

(١) جمهرة ابن دريد ج ٣ ص ٤٣٣ .

(٢) أي الآمدى .

(٣) أسرار البلاغة ص ٣٧١ .

لما كانت الاستعارة تحتوي على عنصر الإبداع بشكل أعمق مما هو في التشبيه ، ذهب القدماء إلى عدّها من أقسام البديع . فهذا الجاحظ يقول : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابي . . . وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين ، كنعنو : منصور النمرى ، ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما »^(١) .

وهاهو ذا « ابن المعتز » يجعل الاستعارة على رأس أبواب البديع في كتابه^(٢) والآمدي ينقل عن صاحب البحرى قوله : « ولكنه رأى (*) هذه الأنواع التي وقع عليها اسم البديع - وهي : الاستعارة ، والطباق ، والتجنيس - منشورة متفرقة في أشعار المتقدمين ، فقصدها ، وأكثر في شعره منها »^(٣) .

ويتحدث القاضي الجرجاني عن قصيدة لأبي تمام فيقول : « فلم يخل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة ، طابق وجانس ، واستعار فأحسن . . . وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته . . . ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام القريض . وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها . . . فلما رأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللفظ ، تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع . . . »^(٤) .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٥١ ، وانظر أيضاً نفس المرجع ج ٤ ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) البديع ص ٣ .

(*) التضمير في « رأى » يعود على مسلم بن الوليد .

(٣) الموازنة ص ١٧ . (٤) الوساطة ص ٣٣ ، ٣٤ .

فالجاحظ وابن المعتز والآمدي والجرجاني كما هو واضح يضعونها كغيرها من جميع الألوان البيانية في « البديع » . أما العسكري فلم يذكرها في أنواع البديع . وإذا بحثنا عنها عند الإمام عبد القاهر وجدناه يعدّها من أقسام البديع بقوله : « وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع . . . »^(١) .

وهو يؤكد على أن الاستعارة من البديع عندما ينقل عن السابقين ، ويقول : « قال القاضي أبو الحسن في أثناء فصل يذكرها فيه : وملاك الاستعارة تقريب الشبه ومناسبة المستعار للمستعار منه ، وهكذا تراهم يعدونها في أقسام البديع حيث يذكر التجنيس والتطبيق والتوشيح ورد العجز على الصدر وغير ذلك من غير أن يشترطوا شرطاً ويعقبوا ذكرها بتقييد فيقولوا : ومن البديع الاستعارة التي من شأنها كذا »^(٢) .

ثم يقول ناقلاً عن الآمدي : « وقال الآمدي نفسه : ثم قد يأتي في الشعر ثلاثة أنواع آخر يكتسي المعنى العام بها بهاءً وحسناً حتى يخرج بعد عمومته إلى أن يصير مخصوصاً . ثم قال : وهذه الأنواع التي وقع عليها اسم البديع وهي : الاستعارة والطباق والتجنيس . فهذا نص في موضع القوانين على أن الاستعارة من أقسام البديع . . . »^(٣) .

لكن عبد القاهر ومن سبقوه لم يقصدوا البديع بمعناه العلمي الذي عرف به عند المتأخرين إنما أراد به الشيء الجديد الرائع ، فالبديع من أبدع الشيء وأبتدعه ، اخترعه وأبتدع فلان هذه الركية ، وسقاء بديع : جديد^(٤) والبديع : من ابتدعت الشيء قولاً أو فعلاً ، إذا ابتدأته لا عن سابق مثال ، والله بديع السموات

(١) الأسرار ص ٢٠ . (٢) نفس المرجع ص ٣٦٨ .

(٣) نفس المرجع ص ٣٧١ .

(٤) أساس البلاغة للزمخشري ص ٣٢ .

والأرض . والعرب تقول : ابتدع فلان الركي إذا استنبطه . وفلان بدع في هذا الأمر . قال الله تعالى : ﴿ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾^(١) أي ما كنت أول^(٢) . هذا هو المقصود من البديع الذي عُدَّت الاستعارة منه . وقد ربط الإمام الاستعارة بأساسها وهو التشبيه فقال : « أما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل »^(٣) .

(١) سورة الأحقاف ، آية <٩> .

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٣) الأسرار ص ٢٠ .

« اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعاريّة »^(١) .

والناظر إلى هذا التعريف يجده قريباً من تعريفات السابقين ، فالاستعارة نقل للكلمة من معناها اللغوي إلى معنى آخر لم تعرف به ، وكما هو واضح ليس في هذا التعريف إشارة إلى القرينة ولا إلى العلاقة وهي التشبيه ، وليس معنى ذلك أن عبدالقاهر لم ينبه إليهما لأنه قد ذكرهما في مواطن أخرى .

وعلى هذا فالاستعارة إلى هنا لاتعني سوى نقل الكلمة من معناها الذي عرفت به إلى معنى آخر غير ذلك المعنى ، أو هي استعمال الكلمة في غير ما وضعت له أساساً ، هذا النقل أو هذا الاستعمال لا يكون ثابتاً وإنما هو بمثابة العاريّة .

لكنه بعد الإمعان في الشرح والتفصيل في الاستعارة نجده يبين حقيقة الاستعارة وأنها ليست مجرد النقل وإنما هي ادعاء ، وكأنه أراد بتعريفه الأول أن يكون مدخلاً لتوضيح معنى الاستعارة .

فلن « المجاز ، مفعول - من جاز الشيء يجوزه إذا تعده . وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وُصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً »^(٢) .

والاستعارة مقصورة « على ما نقله نقل التشبيه للمبالغة »^(٣) .

(١) الأسرار ص ٢٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٦٥ .

(٣) نفس المرجع ص ٣٧٠ .

وحيث إن المجاز في اللغة من جاز يجوز المكان إذا تعداه أي الانتقال من مكان إلى آخر ، وفي الاصطلاح : الانتقال بالكلمة من معنى عرفت به إلى معنى آخر لم تعرف به لعلاقة المشابهة أو غيرها . والاستعارة مجازُ العلاقة فيه المشابهة ، فعلى هذا تكون الاستعارة انتقال بالكلمة من معنى إلى آخر لعلاقة المشابهة .

فجعل الانتقال أساساً وخطوة أولى لعملية الاستعارة ، وبعد أن انتهى الإمام من إثبات هذا المبدأ الأساسي ، انتقل إلى حقيقة الاستعارة والصورة التي تظهر بها وما بداخلها من معانٍ ، فبدأ بتأكيد فكرة الادعاء في الاستعارة ، التي تعني الاتحاد بين المشبه والمشبه به إلى درجة تُمكن المستعير من جعل أحدهما الآخر . وقد اعتمد على كثير من الأدلة نوردتها فيما يلي :

١ - يقول عبدالقاهر : « وفي الفعل والصفة شيء آخر وهو أنك تدعي معنى اللفظ المستعار للمستعار له ، فإذا قلت : « قد أنارت حجته » و « هذه حجة منيرة » فقد ادعيت للحجة النور »^(١) . ونتيجة لما تظهره الحجة من إيضاح وبيان للأمور فقد ادّعي النور للحجة كقولك « أنارت حجته » أو « هذه حجة منيرة » .

٢ - والادعاء ليس في الفعل والصفة فقط بل في الاستعارة بصورة عامة ف « من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرّحه وتدعي له الاسم الموضوع للمشبه به ، كما مضى من قولك « رأيت أسداً » تريد رجلاً شجاعاً و « وردت بحراً زاحراً » تريد رجلاً كثير الجود فائض الكف ، و « أبديت نوراً » تريد علماً وما شاكل ذلك »^(٢) .

فإسقاط ذكر المشبه - الرجل الشجاع - في قولك « رأيت أسداً » إنما هو ادعاء الأسدية له .

(١) نفس المرجع ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ . (٢) نفس المرجع ص ٢٢٣ .

٣ - فالاستعارة لاتعني مجرد النقل لأنه لايمكن إطلاق الاستعارة على كل مانقل ، إذ إنه لو كان اللفظ يستحق الوصف بالاستعارة بمجرد النقل لجاز أن يطلق على الأسماء المنقولة من الأجناس إلى الأعلام لفظ « مستعارة » فيقال « حجر » مستعار في اسم الرجل ولزم كذلك في الفعل المنقول إلى العلمية نحو « يزيد » و « يشكر » في الصوت نحو « بيه »^(١) وذلك كقول هند بنت أبي سفيان :

والله رب الكعبة	لأنكحن بيه
جارية خديبه	مكرمة محبة
تحب من أحبه	تجب أهل الكعبة ^(٢)

وانتقال لفظ « بيه » من الصوت إلى اسم الشخص لايعطي معنى الاستعارة ، فالاستعارة قائمة على التشبيه ، ولعلاقة بين « بيه » الصوت « وبه » الشخص لا في تشبيه ولا في غير التشبيه .

حتى إن وجدت العلاقة بين المنقول والمنقول إليه ولم تكن التشبيه فإن ذلك لا يعد استعارة وذلك ماحدث عند « ابن دريد » في « باب الاستعارات »^(٣) - كما بينت سابقاً - وقد أوضح عبدالقاهر السيب في هذا الخلط فقال : « فالوجه في هذا الذي رأوه من إطلاق الاستعارة على ما هو تشبيه كما هو شرط أهل العلم بالشعر وعلى ما ليس من التشبيه في شيء ولكنه نقل اللفظ عن الشيء إلى شيء بسبب اختصاص وضرب من الملابس بينهما وخلط أحدهما بالآخر أنهم كانوا نظروا إلى مايتعارفه الناس في معنى العارية وأنها

(١) نفس المرجع ص ٣٧٤ .

(٢) الجمهرة لابن دريد ج ١ ص ٢٤ .

(٣) نفس المرجع ج ٣ ص ٤٣٢ .

شيء حول عن مالكة ونقل عن مقره الذي هو أصل في استحقاقه إلى ماليس بأصل ولم يراعوا عرف القوم»^(١) فالأساس عندهم هو النقل فقط ، وإذا كان عبدالقاهر قد قال بفكرة النقل في مواضع في « الأسرار » فقد نفاه في مواضع أخرى في نفس الكتاب موضعاً أهمية فكرة الادعاء ، كما نجده يؤكد على هذه الفكرة الأخيرة في الدلائل ويبطل كلام القائلين بالنقل المجرد مثبتاً ذلك بالأمثلة وتحليلها .

٤ - إن سر بلاغة الاستعارة عند عبدالقاهر في الإثبات ، لأن موضوعها قائم على إثبات معنى يُفهم من معنى اللفظ لا من اللفظ نفسه ، بيان ذلك أنك إذا قلت « رأيت أسداً » كنت قد أفدت معنيين : الأول : وقوع الرؤية منك على الأسد ، والثاني : تشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة ، والشجاعة هي الشيء المثبت لهذا الرجل ، وسر بلاغة الاستعارة لا يكمن في الكلام المتروك على ظاهره - المعنى الأول - ولا في المبالغة في شجاعة الرجل ومساواته بالأسد - المعنى الثاني - بل في التأكيد على إثبات المساواة في الشجاعة . يقول عبدالقاهر : « ليست المزية التي تراها لقولك : « رأيت أسداً » ، على قولك : « رأيت رجلاً لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجراته » أنك قد أفدت بالأول زيادة في مساواته الأسد ، بل أن أفدت تأكيداً وتشديداً وقوة في إثباتك له هذه المساواة ، وفي تقريرك لها ، فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته ، بل في إيجابه والحكم به »^(٢) . فالمزية ليست في ذات المعنى المثبت بل في إثبات هذا المعنى^(٣) .

(١) الأسرار ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧٩ .

(٣) كل هذا تمهيداً ليصل في النهاية إلى إبطال فكرة « النقل » وإثبات « الادعاء » .

وزيادة في الإقناع يورد عبدالقاهر بعض الاحتجاجات التي قد تتبادر إلى الأذهان أنها ضد فكرته فيقول : « واعلم أنه قد يهجنس في نفس الإنسان شيء يظن من أجله أنه ينبغي أن يكون الحكم في المزية التي تحدث بالاستعارة ، أنها تحدث في المثبت دون الإثبات وذلك أن تقول : إنا إذا نظرنا إلى الاستعارة وجدناها إنما كانت أبغ من أجل أنها تدل على قوة الشبه ، وأنه قد تناهى إلى أن صار المشبه لا يتميز عن المشبه به في المعنى الذي من أجله شُبه به . وإذا كان كذلك ، كانت المزية الحادثة بها حادثة في الشبه . وإذا كانت حادثة في الشبه ، كانت في المثبت دون الإثبات »^(١) فالكلام هنا قائم على أن المزية في المثبت لا في الإثبات أي أن المزية كانت في أن تناهى الشبه في القوة إلى أن صار المشبه لا يتميز عن المشبه به في معنى الشجاعة . فالمزية إذن حادثة في الشبه . لذلك فهي في المثبت دون الإثبات .

ثم يوضح عبدالقاهر بطلان هذه الفكرة مؤكداً على أن المزية في الإثبات لا في المثبت ، يقول : « الجواب على ذلك أن يقال : إن الاستعارة ، لعمري ، تقتضي قوة الشبه وكونه بحيث لا يتميز المشبه عن المشبه به ، ولكن ليس ذاك سبب المزية ، وذلك لأنه لو كان ذاك سبب المزية ، لكان ينبغي إذا جئت به صريحاً فقلت : « رأيت رجلاً مساوياً للأسد في الشجاعة ، وبحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسداً » وما شاكل ذلك من ضروب المبالغة ، أن تجد لكلامك المزية التي تجدها لقولك : « رأيت أسداً » . وليس يخفى على عاقل أن ذلك لا يكون »^(٢) .

يسلم عبدالقاهر بأن الاستعارة تقتضي قوة الشبه ، لكن قوة الشبه هذه ليست سبب المزية ، لأنك في قولك : « رأيت رجلاً مساوياً للأسد في الشجاعة ،

(٢) نفس المرجع ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(١) الدلائل ص ٤٤٨ .

وبحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسداً « تظهر قوة في الشبه بين المشبه والمشبه به . ولو كانت المزية في هذا لتساوت هذه الجملة - رأيت رجلاً مساوياً للأسد في الشجاعة - بقولنا - رأيت أسداً » . وذلك لا يكون ، لأن في قولنا : « رأيت أسداً » تأكيداً وقوة في إثبات هذه المساواة للمشبه .

وإذا قيل : إن مزية المساواة في قولنا : « رأيت أسداً » تفهم من طريق المعنى ، وفي قولنا : « رأيت رجلاً مساوياً للأسد » تفهم عن طريق اللفظ . فالجواب عن ذلك أن يقال : إن معنى المساواة في الشجاعة لا يتغير في كلتا الحالتين ، فذكر العبارة على حقيقتها في « رأيت رجلاً مساوياً للأسد » يفيد مساواة الرجل بالأسد في الشجاعة ، أما قولنا « رأيت أسداً » ففيه تأكيد لإثبات هذه المساواة . وقول الشاعر :

فأسبلت للؤلؤاً من نرجس ، وسقت ورداً ، وعضت على العناب بالبرد
يفيد أن الدمع لا ينقص من شبه اللؤلؤ شيئاً ، والعين كذلك مساوية للنرجس في الشبه ، لكن سبب الحسن الذي نراه وسبب الأريحية التي نشعر بها لا يرجع إلى ذلك فحسب بل لأن مثل هذا التعبير يفيد التأكيد على إثبات شدة الشبه لدرجة تلاشى فيها الأبعاد بين المشبه والمشبه به ، وهذه هي وظيفة الاستعارة وسبب المبالغة فيها . لأن المساواة في الشبه يمكن الحصول عليها بصريح العبارة كأن نقول : فأسبلت دمعاً كأنه اللؤلؤ بعينه ، من عين كأنها النرجس حقيقة^(١) . لذلك كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة لإفادتها مالاتفيده الحقيقة . ولما كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة فلن ذلك يثبت أنها ليست لمجرد النقل ، إذ إنها لو كانت مجرد نقل اسم من شيء إلى شيء آخر

(١) نفس المرجع ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ بتصرف .

ماكان لها فضل ومزية على الحقيقة ، يقول عبدالقاهر : « ومن أجل أن كان الأمر كذلك ، رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبداً أبلغ من الحقيقة ، وإلا فلن كان ليس ههنا إلا نقل اسم من شيء إلى شيء ، فمن أين يجب ، ليت شعري ، أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة ، ويكون لقولنا : « رأيت أسداً » ، مزية على قولنا : « رأيت شبيهاً بالأسد ؟ » وقد علمنا أنه محال أن يتغير الشيء في نفسه ، بأن ينقل إليه اسم قد وضع لغيره ، من بعد أن لايراد من معنى ذلك الاسم فيه شيء بوجه من الوجوه ، بل يجعل كأنه لم يوضع لذلك المعنى الأصلي أصلاً ، وفي أي عقل يتصور أن يتغير معنى « شبيهاً بالأسد » ، بأن يوضع لفظ « أسد » عليه ، وينقل إليه » ؟^(١) .

٥ - يستمر عبدالقاهر كعادته في الشرح والتفصيل لإثبات فكرة الادعاء فيقول : « واعلم أن العقلاء بنوا كلامهم ، إذا قاسوا وشبهوا ، على أن الأشياء تستحق الأسماء لخواص معان هي فيها دون ماعداها ، فإذا أثبتوا خاصة الشيء لشيء ، أثبتوا له اسمه ، فإذا جعلوا « الرجل » بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئاً ، قالوا : « هو أسد » وإذا وصفوه بالتناهي في الخير والخصال الشريفة ، أو بالحسن الذي يبهر قالوا : « هو ملك » وإذا وصفوا الشيء بغاية الطيب قالوا : « هو مسك » وكذلك الحكم أبداً ثم إنهم إذا استقصوا في ذلك نفوا عن المشبه اسم جنسه فقالوا : ليس هو بإنسان وإنما هو أسد ، وليس هو آدمياً ، وإنما هو ملك . كما قال الله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾^(٢) ثم إن لم يريدوا أن

(١) نفس المرجع ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٢) سورة يوسف ، آية < ٣١ > .

يخرجه عن جنسه جملة قالوا : « هو أسد في صورة إنسان » و « هو ملك في صورة آدمي » . وقد خرج هذا للمتنبى في أحسن عبارة ، وذلك في قوله :

نحن ركب ملجن في زي ناس فوق طير لها شخوص الجمال^(١)

فكما هو واضح من النص أن العرب إذا أراودا إثبات صفة شيء لشيء آخر أثبتوا له اسمه فقالوا فيمن لا تنقص شجاعته عن الأسد « هو أسد » وإذا بالغوا في ذلك نفوا عنه اسم جنسه « الإنسانية » فقالوا : « ليس هو بإنسان ، وإنما هو أسد » . وإن لم يريدوا إخراجه عن جنسه قالوا : « هو أسد في صورة إنسان » . وذلك مانجده في بيت المتنبى المذكور . يقول إنهم كالجن في اعتياد المجاهل والفلولاء لكنهم في صورة الناس ، وكذلك ركائبهم كالطير في سرعة قطع المسافات إلا أنها في صورة جمال . واستناداً إلى صحة ذلك تبطل فكرة الاقتصار على مجرد النقل ، فالاستعارة إذن ليست مجرد النقل بل ادعاء معنى الاسم ، لأنها لو كانت مجرد نقل وكان قولنا « رأيت أسداً » لا يعني الأسدية على الحقيقة بل يعني رؤية شبيه بالأسد فإنه من المحال في هذه الحالة أن تقول : ليس هو بإنسان ، ولكنه أسد ، أو هو أسد في صورة إنسان ، وكذلك لا يمكن أن يقال : ليس هو بإنسان ولكنه شبيه بأسد أو يقال : هو شبيه بأسد في صورة إنسان^(٢) .

٦ - قول عبد القاهر في رده على القاضي الذي يقول : « وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها »^(٣) .

(١) الدلائل ص ٤٣٣ - ٤٣٤ . (٢) نفس المرجع ص ٤٣٤ بتصرف .

(٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٤٩ .

وعلى الرمانى الذي يقول : « الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة »^(١) .

يقول الإمام في إبطال ما قالاه وإثبات فكرة الادعاء : « وإطلاقهم في الاستعارة أنها نقل للعبارة عما وضعت له ، من ذلك ، فلا يصح الأخذ به . وذلك أنك إذا كنت لاتطلق اسم « الأسد » على الرجل ، إلا من بعد أن تدخله في جنس الأسود من الجهة التي بينا ، لم تكن نقلت الاسم عما وضع له بالحقيقة ، لأنك إنما تكون ناقلاً ، إذا أنت أخرجت معناه الأصلي من أن يكون مقصودك ، ونقضت به يدك ، فأما أن تكون ناقلاً له عن معناه ، مع إرادة معناه ، فمحال متناقض »^(٢) فاستعارتك اسم الأسد للرجل لاتكون إلا من بعد أن تجعل الرجل من جنس الأسود ، وذلك لا يكون مجرد نقل لأن النقل يعني إخراج معنى « الاسم » الأصلي من القصد ، وهذا ما يقصد في الاستعارة .

وعليه فإن الاستعارة لاتعني النقل المجرد بل الادعاء .
فإثبات المعنى ، والمبالغة فيه ، وكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة ، وإدخال المشبه في جنس المشبه به ، كل هذه الأمور تنفي أن تكون الاستعارة مجرد النقل .

٧ - ودليل آخر على أن الاستعارة ليست نقلاً ، هو وجود نوع من الاستعارات لا يتصور فيه النقل مطلقاً وهو ما عرف فيما بعد عبد القاهر بالاستعارة المكنية .
يوضح هذا الجانب الإمام قائلاً : « واعلم أن في الاستعارة مالا يتصور تقدير النقل فيه البته ، وذلك مثل قول لبيد :

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٩ .

(٢) الدلائل ص ٤٣٥ .

وغداة ربح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

لاخلاف في أن « اليد » استعارة ، ثم إنك لاتستطيع أن تزعم أن لفظ اليد قد نقل عن شيء إلى شيء . وذلك أنه ليس المعنى على أنه شبه شيئاً باليد ، ويمكنك أن تزعم أنه نقل لفظ اليد إليه ، وإنما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال في تصرفها « الغداة » على طبيعتها ، شبه الإنسان قد أخذ الشيء بيده يقبله ويصرفه كيف يريد . فلما أثبت لها مثل فعل الإنسان باليد استعار لها « اليد » وكما لايمكن تقدير « النقل » في لفظ « اليد » ، كذلك لايمكنك أن تجعل الاستعارة فيه من صفة اللفظ ، ألا ترى أنه محال أن تقول : « إنه استعار لفظ اليد للشمال »^(١) .

لأننا عندما نقول « رأيت أسداً » فلننا بقولنا « أسداً » نشير إلى رجل ، وإذا قلنا « عنت لنا ظبية » فلننا نشير بالظبية إلى المرأة الحسنة ، ففي هذه الاستعارة يمكن القول بالنقل ، لكننا في النوع الثاني - الاستعارة المكنية - لايمكن أن نتصور النقل بتاتاً ، ففي بيت لبied لانستطيع القول أن « اليد » قد نقلت من معنى إلى آخر لأن الشاعر لم يرد تشبيه شيء باليد كما أردنا تشبيه الرجل بالأسد في قولنا « رأيت أسداً » وإنما « أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرفاً كتصرف الإنسان في الشيء يقبله فاستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق الشبه ، وحكم الزمام في استعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه ولكنه وفى المبالغة شرطها من الطرفين فجعل على الغداة زماماً ليكون أتم في إثباتها مصرفة كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ في تصييرها مصرفة »^(٢) .

فطبيعة الاستعارة المكنية دليل على أن الاستعارة ليست نقلاً ، - وسيأتي

(٢) الأسرار ص ٤٤ .

(١) الدلائل ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

الحديث عنها في فصل : أقسام الاستعارة - إن شاء الله - وهذه الحجة - الاستعارة المكنية - لا تثبت فكرة الادعاء التي نحن بصددھا ، لكنها تثبت أن الاستعارة ليست نقلاً . فإذا لم تكن الاستعارة نقلاً ، فماذا تكون؟ لا بد وأنها تفيد أبعد من النقل ، فكأن في هذا إشارة إلى معنى الادعاء .

٨ - ثم يذكر عبدالقاهر دليلاً آخر على أن الاستعارة تكون في المعنى يقول فيه : « وأعلم أنك تراهم لا يمتنعون إذا تكلموا في الاستعارة من أن يقولوا : « إنه أراد المبالغة فجعله أسداً » ، بل هم يلجأون إلى القول به . وذلك صريح في أن الأصل فيها المعنى ، وأنه المستعار في الحقيقة ، وأن قولنا : « استعير له اسم الأسد » ، إشارة إلى أنه استعير له معناه ، وأنه جعل إياه . وذلك أنا لو لم نقل ذلك ، لم يكن « لجعل » ههنا معنى ، لأن « جعل » لا يصلح إلا حيث يراد إثبات صفة للشيء ، كقولنا : « جعلته أميراً وجعلته لصاً ، تريد أنك أثبت له الإمارة ، ونسبته إلى اللصوصية وادعيتها عليه ورميته بها »^(١) .

إن قولنا « جعله أسداً » في الاستعارة يدل على أنها ادعاء معنى الاسم لأن « جعل » تعني إثبات صفة للشيء ، فقولنا : « جعلته أميراً » أي أثبت له صفة الإمارة وادعيتها عليه .

هذا هو معنى « جعل » ، أما من يقول بأن « جعل » بمعنى « سَمَّى » فمن باب التساهل لأن حكم « جعل » إذا تعدى إلى مفعولين حكم « صير » ، فالحكم في « صيرته أميراً » كالحكم في « جعلته أسداً » وكما أن « صيرته أميراً » يعني إثبات صفة الإمارة له فكذلك « جعلته أسداً » يعني إثبات صفة الشجاعة له .

(١) الدلائل ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

وإن كنا نجد من يقول بأن « جعل » يكون بمعنى « سَمَى » فمن باب التسامح أيضاً . ذلك أن من يقول « أنا لا أسمى إنساناً » فالذي لاشك فيه أنه يريد أن ينفي عنه المعاني التي بها كان الإنسان إنساناً . أما مساواة « جعل » بـ « سَمَى » مساواةً تامةً في المعنى فما لاشك في فسادها ، لأنه لا يمكن القول بأن « جعله زيداً » بمعنى « سماه زيداً » ولا نقول « اجعل ابنك زيداً » بمعنى « سمه زيداً » .

ومما يزيد الأمر وضوحاً ونظراً إلى قولهم : « جعل » بمعنى « سَمَى » في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾^(١) ، فقد نجد في تفسير هذه الآية أن « جعل » بمعنى « سَمَى » . وهذا يثبت أن ليس المعنى على مجرد التسمية بل على إثبات صفات الإناث للملائكة واعتقاد وجودها فيهم .

أما أن يكون المعنى على التسمية فقط فمحال ، لأن مجرد التسمية لا يخرجهم إلى الكفر ولا يوجب لهم إلا القليل من الذم . هذا بالإضافة إلى قوله تعالى فيما بعد : ﴿ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾^(٢) دليل على اعتقادهم بإثبات صفة الإناث للملائكة ، لأنه لو كان مجرد إطلاق الاسم لما جاءت الإجابة بقوله : ﴿ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ ﴾ والتفسير الصحيح والعبارة المستقيمة ، ما قاله أبو إسحق الزجاج رحمه الله ، فإنه قال : « إن « الجعل » ههنا في معنى القول والحكم على الشيء ، يقول : « قد جعلت زيداً أعلم الناس ، أي وصفته بذلك وحكمت به »^(٣) .

(١) سورة الزخرف ، آية <١٩> .

(٢) نفس السورة ، آية <١٩> .

(٣) الدلائل ص ٤٣٩ .

الفصل الأول « ب »

الاستعارة والمجاز لغوياً وعقلياً

تستعمل كلمة عقلي استعمالين ، فتكون مرة صفة للمجاز الإسنادي أو الحكمي - وهو إسناد الفعل أو ما في معناه لغير ماهر له - ومرة مقابلة للمجاز اللغوي - بمعنى أن التصرف في نقل الكلمة من معناها الأول إلى المعنى الثاني ناشئ عن نظر عقلي لا لغوي - والأخير هو مدار حديثنا .

وقد أجمع جلة علماء البلاغة على أن الاستعارة مجاز لغوي .
أما عبدالقاهر فنجده في الدلائل يقول : « وإذ قد عرفت هذا في «الكناية» ، فالاستعارة في هذه القضية وذاك أن موضوعها على أنك تثبت بها معنى لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ ، ولكنه يعرفه من معنى اللفظ »^(١) .

ويقول في موضع آخر : « فإذا ثبت أن ليست الاستعارة نقل الاسم ، ولكن ادعاء معنى الاسم وكنا إذا عقلنا من قول الرجل : « رأيت أسداً » ، أنه أراد به المبالغة في وصفه بالشجاعة ، وأن يقول : إنه من قوة القلب ، ومن فرط البسالة وشدة البطش ، وفي أن الخوف لا يخامره ، والدعر لا يعرض له ، بحيث لا ينقص عن الأسد ، لم تعقل ذلك من لفظ أسد ولكن من ادعائه معنى الأسد الذي رآه ، ثبت بذلك أن الاستعارة كالكناية ، في أنك تعرف المعنى فيها من طريق المعقول دون طريق اللفظ »^(٢) ومراد عبدالقاهر بـ « طريق المعقول : أن هذا الإدراك يكون عن طريق العقل لا عن طريق اللغة ، وعلى هذا تكون الاستعارة مجازاً عقلياً ، ودليله على ذلك أن الكلمة المسماة بالاستعارة لا تطلق إلا بعد ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به » بحيث تصوير حقيقة المشبه بها الموضوع لها اللفظ شاملةً للمشبه بإدخاله في جملة أفرادها بالادعاء العقلي وبالاعتقاد التقديري المبني على المشابهة ، فالأسد

(١) الدلائل ص ٤٣١ . (٢) نفس المرجع ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

مثلاً لما لم يطلق على الرجل الشجاع حتى جعل فرداً من أفراد الأسد بالادعاء»^(١) وإذا كان العقل قد صيّر من أفرادها التي وضع لحقيقتها فلن الكلمة المسماة بالاستعارة تكون قد استعملت فيما وضعت له ، فالتجوز في الحقيقة إنما كان في المعاني بجعل بعضها نفس غيرها ثم أطلق اللفظ ، فتسميته مجازاً عقلياً ظاهراً نظراً لسبب إطلاقه وأما تسميتها استعارة فإعطاء حكم المعنى للفظ لأن المستعار في الحقيقة على هذا هو المشبه به بجعل حقيقته لما ليس حقيقة له وهو المشبه ، ولما تبع ذلك إطلاق اللفظ سمي استعارة»^(٢) .

فقول عبدالقاهر : « أنك تعرف المعنى فيها من طريق المعقول دون طريق اللفظ »^(٣) تأكيد على أن الاستعارة مجاز عقلي ونفي أن يكون للغة دور في ذلك وهذا يتنافى ماجاء في الأسرار ، فقد عدّها فيه من قبيل المجاز اللغوي إذ يقول : « واعلم أن المجاز على ضربين مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمعقول فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا : « اليد مجاز في النعمة » و « الأسد مجاز في الإنسان وكل مالميس بالبيع المعروف » كان حكماً أجريناه على ماجرى عليه من طريق اللغة ، لأننا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداءً في اللغة وأوقعها على غير ذلك إمّا تشبيهاً وإما لصلة وملابسة بين مانقلها إليه ومانقلها عنه »^(٤) .

فقولنا « رأيت أسداً » تجوز في لفظة « أسد » لأن المقصود بالأسد الإنسان فالتصرف هنا في أمر لغوي ، لاستعمالنا كلمة « أسد » في غير ما وضعت له في

(١) شروح التلخيص ، مواهب الفتاح ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) شروح التلخيص ، مواهب الفتاح ص ٦٠ .

(٣) الدلائل ص ٤٤٠ .

(٤) الأسرار ص ٣٧٦ .

اصطلاح التخاطب . وحيث إن التصرف في أمر لغوي فالاستعارة مجاز لغوي ، وقد جاء في الإيضاح أن هناك من جعل الاستعارة مجازاً عقلياً ، لكن صاحبي الإيضاح والمفتاح يرجحان أنها من قبيل المجاز اللغوي ، لأن اللفظ المسمى بالاستعارة قد وُضع للمشبه به ولم يوضع للمشبه ولا لأعم من المشبه والمشبه به ، وإذا لم يوضع للمشبه ولا للشجاعة - مثلاً - فاستعماله في المشبه مجاز لغوي ، لأنه في هذه الحالة لفظ استعمل في غير ما وضع له وهذا هو معنى المجاز اللغوي^(١) .

والذي نود أن نشير إليه هنا هو أن عبدالقاهر يرى أن الاستعارة من قبيل المجاز اللغوي ، ففي كتاب الدلائل - الذي ذكر فيه أن الاستعارة مجاز عقلي - يقول : « الاستعارة التي هي مجاز في نفس الكلمة »^(٢) فالتجوز في نفس الكلمة يعني أن الاستعارة مجاز لغوي .

ومما يدفعنا إلى القول بأن عبدالقاهر لم يناقض نفسه ، قوله في الأسرار : « ويلوح ههنا شيء ، وهو أنا وإن جعلنا الاستعارة من صفة اللفظ فقلنا « اسم مستعار » و « هذا اللفظ استعارة ههنا وحقيقة هناك » فإننا على ذلك نشير بها إلى المعنى من حيث قصدنا باستعارة الاسم أن نثبت أخص معانيه للمستعار له »^(٣) .

وبهذا تكون الاستعارة مجازاً لغوياً من جهة وعقلياً من جهة أخرى ، ويؤكد الشيخ ذلك في موضع آخر إذ يقول : « فلن قال قائل : كان سياق هذا الكلام وتقريره يقتضي أن طريق المجاز كله العقل وأن لاحظاً للغة فيه ، وذلك أنا لا نجري اسم الأسد على المشبه بالأسد حتى ندعي له الأسدية وحتى نوهم أنه حين أعطاك من البسالة والبأس والبطش ماتجده عند الأسد صار كأنه واحد من الأسود قد

(١) شروح التلخيص ، مواهب الفتاح ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٩٩ .

(٣) الأسرار ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

استبدل بصورته صورة الإنسان ، وقد قدمت أنت فيما مضى ما بين أنك لا تتجاوز في إجراء اسم المشبه به على المشبه حتى تخيل إلى نفسك أنه هو بعينه ، فإذا كان الأمر كذلك فأنت في قولك : « رأيت أسداً » متجاوز من طريق المعقول كما أنك كذلك في فعل الربيع .

وإذا كان كذلك عاد الحديث إلى أن المجاز فيهما جميعاً عقلي فكيف قسمته قسمين لغوي وعقلي ؟ فالجواب : إن هذا الذي زعمت - من أنك لا تجري اسم المشبه به على المشبه حتى تدعي أنه قد صار من ذلك الجنس نحو أن تجعل الرجل كأنه في حقيقة الأسد - صحيح كما زعمت لا يدفعه أحد وكيف السبيل إلى دفعه وعليه المعول في كون التشبيه على حد المبالغة وهو الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه المرسل ، إلا أن ههنا نكتة أخرى قد أغفلتها وهي أن تجوزك هذا الذي طريقه العقل يفضي بك إلى أن تجري الاسم على شيء لم يوضع له في اللغة على كل حال فتجاوز بالاسم على الجملة الشيء الذي وضع له ، فمن ههنا جعلنا اللغة طريقاً فيه ^(١) .

وبالعودة إلى مقالته عبدالقاهر في الدلائل من أن الاستعارة يُعرف المعنى فيها من طريق « المعقول » دون طريق اللفظ ومقارنته بما ورد في هذا النص الأخير يتأكد لنا عدم تناقض عبدالقاهر ، ذلك لأنه يسلم بأن فكرة « الادعاء » تكون عن طريق العقل ، لكنه يبين أن الأساس في التجوز هو تجوز في الكلمة نفسها ، لذلك كانت الاستعارة مجازاً لغوياً حتى وإن كان العقل طريقاً فيها .

(١) نفس المرجع ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

الفصل الثاني

مكان الاستعارة بين التشبيه والتمثيل

واضح من كلام الشيخ أن الأولى البدء بالكلام عن المجاز « وأعلم أن الذي يوجبه ظاهر الأمر ، وما يسبق إلى الفكر ، أن يبدأ بجملته من القول في الحقيقة والمجاز ويتبع ذلك القول في التشبيه والتمثيل ثم ينسق ذكر الاستعارة عليهما ، ويؤتى بها في أثرهما ، وذلك أن المجاز أعم من الاستعارة والواجب في قضايا المراتب أن يبدأ بالعام قبل الخاص ، والتشبيه كالأصل في الاستعارة وهي شبيه بالفرع له أو صورة مقتضبة من صورته ، إلا أن ههنا أموراً اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة وبيان صور منها والتنبية على طريق الانقسام فيها حتى إذا عرف بعض ما يكشف عن حالها ، ويقف على سعة مجالها ، عطف عنان الشرح إلى الفصلين الآخرين فوفى حقوقهما . وتبين فروقهما ، ثم ينصرف إلى استقصاء : الكلام في الاستعارة »^(١) . ولم يذكر الشيخ عبدالقاهر هذه الأمور التي اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة ، ولعل منها أنه بدأ كتابه بالحديث عن اللفظ والمعنى وهو يعد بلاغة الاستعارة من شواهد هذه القضية . ولعل منها - أيضاً - أنه بدأ الحديث عن الجنس والطباق والحشو ، وهي من ألوان البديع والشيخ يعد الاستعارة بديعاً فالمناسبة ظاهرة بين ذكر الاستعارة مع هذه الألوان ، وتقديم الحديث عنها مع أن قضايا المراتب كانت تقتضي تأخيرها عن المجاز . كما أن التشبيه لما كان أصلاً لها كان ينبغي أن يبحث فيه قبلها .

ونلاحظ أن عبدالقاهر يضع هنا مبدأ مهماً من مبادئ التأليف والتعليم ، وهي لفظة ذكية وإعية منه ، أن ترتب القضايا والمعلومات فيبدأ بالعام قبل الخاص . وفي غير هذا الموضع نجد له نظرات ثاقبة أيضاً في الطريقة المثلى للتأليف والتعليم .

وقد قسّم عبدالقاهر الاستعارة - من حيث الفائدة - قسمين : مفيدة وخالية من الفائدة - كما سيتضح لنا فيما بعد - ومايهمنا هنا هو بيان أن الاستعارة المفيدة هي ما بُنيت على التشبيه . أما القسم الخالي من الفائدة فهو ما يكون النقل فيه لغير فائدة وغرض . وقد أخرج عبدالقاهر هذا القسم من الاستعارة فيما بعد .

إذن فالتشبيه أصل في الاستعارة لكنه شيء وهي شيء آخر ، وإنما يكون التشبيه غرضاً في الاستعارة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن عبدالقاهر فصل القول في التشبيه وبيّن أنه ليس من قبيل المجاز وكأنه في ذلك يرد على من عدّ التشبيه مجازاً كالذي نقله ابن رشيق إذ يقول : « فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخله تحت المجاز »^(١) . ويقول في موضع آخر : « وأما كون التشبيه داخلاً تحت المجاز فلاّن المتشابهين في أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح ، لا على الحقيقة »^(٢) .

فقلنا « زيد أسد » على اعتبار تشبيه « زيد بالأسد » لا على الحقيقة بل من باب التسامح فقط ، لكن عبدالقاهر يخالف ابن رشيق ومن قال برأيه ويؤكد على أن التشبيه من قبيل الحقيقة فيقول « كل متعاط لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضي غرضه ، فإذا قلت « زيد كالأسد » و « هذا الخبر كالشمس في الشهرة » و « له رأي كالسيف في المضاء » لم يكن منك نقل للفظ عن موضوعه . ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب أن لا يكون في الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز ، وهذا محال لأن التشبيه معنى من المعاني وله حروف وأسماء

(١) العمدة ج ١ ص ٢٦٦ .

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٦٨ .

تدل عليه ، فإذا صُرح بذكر ماهو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم في سائر المعاني فاعرفه «^(١) .

ففي قولنا « زيد كالأسد » ، أردنا من لفظ « زيد » زيداً على الحقيقة ، ومن لفظ « الأسد » أسداً على الحقيقة ، وإنما قرنا بينهما عن طريق الأداة ولم نخرج بأي من اللفظين عن دلالتيه الوضعية .

وكان ممن جاء بعد عبدالقاهر وتحدث في هذه القضية : ابن الأثير وابن قيم الجوزية . فابن الأثير في المثل السائر يذهب مذهب ابن رشيق من أن التشبيه مجاز فيقول « فالمجاز إذاً اسم للمكان الذي يجاز فيه وحقيقته هي الانتقال من مكان إلى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من محل إلى محل ، كقولنا « زيد أسد » فلن زيداً إنسان ، والأسد هو هذا الحيوان المعروف وقد جزنا من الإنسانية إلى الأسدية . . . »^(٢) .

ويقول في موضع آخر « والذي انكشف لي بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم قسمين : توسع في الكلام وتشبيه »^(٣) ، وقال ابن قيم الجوزية : « والذي عليه جمهور أهل الصناعة أن التشبيه من أنواع المجاز وتصانيفهم كلها تصرح بذلك وتشير إليه »^(٤) .

لقد عدّ ابن الأثير التشبيه مجازاً بحجة أن القائل « زيد أسد » قد خرج بزيد من الإنسانية إلى الأسدية وذلك بين الفساد ، لأن المجاز انتقال باللفظة نفسها من معنى إلى آخر ، وقولنا « زيد أسد » لا ينطبق عليه ذلك لأن « زيداً » مستعمل على الحقيقة . ولا يرد به غير الإنسان ، و « أسداً » مستعمل على الحقيقة -أيضاً- ولا يرد به غير الحيوان المعروف ، وإنما جمع بينهما لتشابههما في الشجاعة

(٢) المثل السائر ج ١ ص ١٢١ .

(٤) الفوائد ص ٥٤ .

(١) الأسرار ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٣) نفس المرجع ج ٢ ص ٧٦ .

مثلاً ، فأين يكون المجاز إذا كان كل ذلك حقيقة ، وبذلك يثبت أن ما رثاه عبدالقاهر في هذه القضية هو الصواب فلا يكون التشبيه إلا من باب الحقيقة . ولكن هذا الحكم يضطرب في نهاية « الأسرار » عندما يجيز عبدالقاهر دخول أمثلة من التشبيه في الاستعارة ، مثل « هو بحر » .

وسبب تجاوز الإمام في اعتبار مثل هذا المثال من الاستعارة « أن الاسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه »^(١) .

ولو رجع عبدالقاهر إلى ما ذكره في البداية من أن التشبيه حقيقة ولا يدخل في باب المجاز لقرر أن مثل هذا لا يصلح إلا أن يكون تشبيهاً خاصاً وأنه رأى جواز دخول بعض أحرف التشبيه على « هو بحر » إلا أنه وإن كان لا يحسن فيه « الكاف » فإنه يحسن فيه « كَان » كقولك « كأنه أسد » أو ما يجرى مجرى كَان في نحو : « تحسبه أسداً » و « تخاله سيفاً » .

وقبل أن نبدأ في بيان الفروق بين الاستعارة والتشبيه يجدر بنا إيضاح مثل قولنا « زيد أسد » هل هو تشبيه أو استعارة ؟

من علماء البلاغة من عدّ مثل هذا القول استعارة ومنهم من عدّه تشبيهاً ، فهذا المبرد يعقد باباً في التشبيه يعد فيه مثل هذا القول تشبيهاً ، فيقول : « وفي هذا الشعر من التشبيه * :

خبر فؤادك أو ستخبره	قسماً لتنتهين أو حلفاً
الحب ظهر أنت راكبه	فإذا صرفت عنانه انصرفاً ^(٢)

(١) الأسرار ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) الكامل ج ٢ ص ١٠٩ .

* لأبي نواس الحسن بن هانئ ، فارسي الأم والأب أيضاً ، البلاغة تطور وتاريخ ، د . شوقي ضيف .

والشاهد في قوله « الحب ظهر » أي أن أبانواس يشبه الحب بالدابة التي تركبها
فإن أنت استرسلت في أسبابه تمادى هذا الحب وانطلق كما تتطلق الدابة التي ترك
عنانها ، (وإن صرفت عنانه انصرف) .

فالحكم في هذا أو مثله أن يكون تشبيهاً لوجود الطرفين .
أما قول البُحْثري :

صفت مثل ما تصفو المدام خلاله ورقت كما رق النسيم شمائله

فإن أبا هلال يذكره عندما يستشهد للاستعارة من أشعار المتقدمين^(١) ، والصواب
في هذا أنه تشبيه ، لأن وجود الأداة دليل حاسم على الحكم بالتشبيه ، هذا
بالإضافة إلى وجود الطرفين .

وكما هو ملحوظ فقد خلط علماء البلاغة بين الاستعارة والتشبيه ، وقد عدّ
كثير منهم التشبيه المحذوف الأداة استعارة ، وكان أول من خالف في هذا ،
القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني قائلاً : « وربما جاء من هذا الباب ما يظنه
الناس » استعارة « وهو تشبيه أو مثل » فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعاً
من الاستعارة عدّ فيها قول أبي نواس :

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو
الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه
شيء بشيء وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت
العبارة فجعلت في مكان غيرها وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له
للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتبين في أحدهما
إعراض عن الآخر^(٢) .

(١) الصناعتين ص ٣٢٩ . (٢) الوساطة ص ٤١ .

ثم يأتي عبدالقاهر الجرجاني ويؤكد صحة هذه القضية مدلياً بدلوه في إثباتها بما عُرِف عنه من دقة واستقصاء .

يقول « اعلم أن الوجه الذي يقتضيه القياس وعليه يدل كلام القاضي في الوساطة أن لاتطلق الاستعارة على نحو قولنا « زيد أسد » و « هند بدر » ولكن تقول هو تشبيه ، فإذا قال « هو أسد » لم تقل : استعار له اسم الأسد ، ولكن تقول : شبهه بالأسد . وتقول في الأول* إنه « استعارة » لاتتوقف فيه ولانتحاشى ألبنة . وإن قلت في القسم الأول إنه تشبيه كنت مصيباً من حيث تخبر عما في نفس المتكلم وعن أصل الغرض ، وإذا أردت تمام البيان قلت : أراد أن يشبه المرأة بالظبية فاستعار لها اسمها مبالغة ^(١) .

إذن فالتشبيه موجود في القسمين إلا أننا نطلق على الأول « استعارة » وعلى الثاني « تشبيهاً » . أما تمثيل عبدالقاهر للاستعارة - في أول الأسرار - بهذين المثالين : « الفكرة مخ العمل » و « السفر ميزان القوم » فهو مجرد خلط سرعان مازال بعد تدقيق النظر في القضية . فكأن ماجاء من شرح وتفصيل يُعد نسخاً لهذين المثالين . وعبدالقاهر لا يدع مجالاً للشك في ذلك بتفصيل الفروق بين التشبيه والاستعارة ، ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن التمثيل تشبيه إلا أنه خاص ، أو بعبارة أخرى : التمثيل تشبيه إلا أن التشبيه أعم ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً ، لهذا السبب رأيت أن أجمع بين التشبيه والتمثيل عند الحديث عن الفروق .

الفروق بين الاستعارة والتشبيه - كما ذكرها عبدالقاهر :

الفرق الأول :

كما ذكرنا من قبل أن الاستعارة المفيدة هي ما بُنيت على قصد التشبيه ، إذن فهو

(*) الأول قولنا : رأيت أسداً .

(١) الأسرار ص ٢٩٨ .

أساس فيها لكنه شيء وهي شيء آخر ، وإنما يكون التشبيه غرضاً في الاستعارة ، فكل استعارة تعتمد على التشبيه وليس كل تشبيه استعارة .

يقول عبدالقاهر : « فالتشبيه ليس هو الاستعارة ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه وهو كالغرض فيها وكالعلة والسبب في فعلها »^(١) .

وللرد على تساؤل قد ينشأ من كيفية كون الاستعارة من أجل التشبيه والتشبيه يكون ولا استعارة يقول « إن الأمر كما قلت ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة فقولي من أجل التشبيه أردت به من أجل التشبيه على هذا الشرط ، وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلة كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها ، ألا ترى أنك تفيد بالاسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة ، لأنك تفيد بقولك « رأيت أسداً » أنك رأيت شجاعاً شبيهاً بالأسد وأن شبهه به في الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه حتى إنه لا ينقص عن الأسد فيها ، وإذا ثبت ذلك فكما لا يصح أن يقال إن الاستعارة هي الاختصار والإيجاز على الحقيقة وإن حقيقتها وحقيقتهما واحدة ولكن يقال إن الاختصار والإيجاز يصلان بها أو هما غرضان فيها ومن جملة مادعا إلى فعلها كذلك حكم التشبيه معها . فإذا ثبت أنها ليست التشبيه على الحقيقة كذلك لا تكون التمثيل على الحقيقة لأن التمثيل تشبيه إلا أنه تشبيه خاص »^(٢) .

فالمستعير ينقل* اللفظ عن أصله في اللغة للتشبيه والمبالغة والاختصار ، وضارب المثل يقصد إلى تقرير الشبه بين الشئين .

(١) نفس المرجع ص ٢٢٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(*) لا منفاة بين النقل والادعاء ؛ لأن الادعاء هو سبب النقل .

الفرق الثاني :

أن التشبيه يكون بوجود الطرفين - المشبه والمشبّه به - وتكون له أدواته ، أما الاستعارة فتكون عن طريق النقل وترك المشبه لفظاً وتقديراً .
فيسقط ذكر المشبه كما في قولنا « رأيت أسداً » - هذا إذا كانت الاستعارة تصريحية - أو يسقط ذكر المشبه به كما في قول الشاعر : « إذا أصبحت بيد الشمال زمامها » ، - إذا كانت الاستعارة مكنية - أي أن الاستعارة تعتمد إسقاط أحد الطرفين ، صرح بذلك الإمام وإن لم يسم النوعين .

الفرق الثالث :

أن الاستعارة يجب أن تفيد حكماً زائداً على التشبيه والتمثيل وهو الانتقال^(١) باللفظ من أصله اللغوي إلى معنى آخر لم يوضع له أساساً لعقد المشابهة بين المعنى الأول والثاني ، أما الضارب للمثل فلا ينتقل باللفظ عما وضع له وإنما يأتي به على أصله وحقيقته في اللغة .

ولو أن المراد بالاستعارة هو نفسه المراد بالتمثيل لجاز لنا أن نطلق على التمثيل استعارة والعكس ، وذلك بين الخطأ^(٢) .

الفرق الرابع :

يستنبط الإمام هذا الفرق عند مناقشته لرأي من الآراء فيقول « فلن قلت : وكذلك فقل في قولك « زيد أسد » إنه أراد تشبيهه بالأسد فأجرى اسمه عليه ، ألا ترى أنك ذكرته بلفظ التنكير فقلت « زيد أسد » كما نقول « زيد واحد من الأسود » ، فما الفرق بين الحالتين^(٣) وقد جرى الاسم في كل واحد منهما على

(١) يستعمل الإمام لفظ « النقل » لأن الادعاء سبب النقل . (٢) انظر الأسرار ص ٢٢١ .

(٣) الحالة الأولى : قولنا « رأيت أسداً » - الاستعارة ، والحالة الثانية : قولنا « زيد أسد » - التشبيه .

المشبه ؟ فالجواب أن الفرق بين هو أنك عزلت في القسم الأول الاسم الأصلي عنه واطرحته وجعلته كأن ليس هو باسم له وجعلت الثاني هو الواقع عليه والمتناول له ، فصار قصدك التشبيه أمراً مطوياً في نفسك مكنوناً في ضميرك وصار في ظاهر الحال وصورة الكلام ونصبته وكأنه الشيء الذي وضع له الاسم في اللغة وتصور - إن تعلقه الوهم - كذلك ، وليس كذلك القسم الثاني لأنك قد صرحت فيه بذكر المشبه ، وذكرك له صريحاً يأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه به .

وإذا سمع سامع قولك « زيد أسد » و « هذا الرجل سيف صارم على الأعداء » استحال أن يظن وقد صرحت له بذكر « زيد » أنك قصدت أسداً وسيفاً ، وأكثر مايمكن أن يُدعى تخيُّله في هذا أن يقع في نفسه من قولك « زيد أسد » حال الأسد في جرائته وإقدامه وطمشه ، فأما أن يقع في وهمه أنه رجل وأسد معاً بالصورة والشخص فمحال ^(١) .

فالفرق لاشك واضح : وهو أن المستعير يترك اسم « المشبه - زيد - جانباً وذلك في قوله « رأيت أسداً » - وكأنه ليس هو الاسم الأصلي ، ويذهب إلى اسم المشبه به - الأسد - ويجعله اسماً له وكأنه قد وضع له في أصل اللغة ، قاصداً في نفسه تشبيه « زيد » « بالأسد » لذلك قد يقع في الظن « الأسد » حقيقة ، وهذا مالا يحدث في القسم الثاني - التشبيه - إذ إن التصريح بذكر اسم « زيد » في « زيد أسد » يمنع الظن بأن المقصود غير « زيد » ، وأقصى مايمكن فهمه من هذه الجملة هو تخيل حال الأسد في جرائته وإقدامه وطمشه . ففي الاستعارة تأكيد على دعوى الاتحاد بين الطرفين ، فالطرف الأول مطروح والطرف الثاني كأنه الأول ، وبذلك يكون التشبيه الجامع بين الطرفين أمراً مطوياً في النفس ، ولايستدل على المقصود إلا بقريئة مائعة من إرادة المعنى الأصلي .

(١) نفس المرجع ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

هذا الفرق مترتب وناتج عن الفرق السابق فإذا قيل : « عنت لنا ظبية » جاز أن يحمل الكلام على الظاهر ، إذ لا مانع من إرادة الحيوان أو الحسنة في مثل هذه الجمل ، وذلك مالا يحدث في جمل التشبيه ، فقولنا : « زيد أسد » تشبيه بأن الشيء الواحد لا يكون رجلاً وأسداً في نفس الوقت وإنما يكون رجلاً وبصفة الأسد فهو رجل يشبه الأسد في شجاعته مثلاً ، وكذلك فلن التصريح بذكر المشبه يمنع التوهم أنه من جنس المشبه به .

إن قولنا « رأيت أسداً يوهم في البداية أن المعنى على حقيقته ، أما التشبيه في قولنا « زيد كالأسد » فلا يظن مثل ذلك فيه بل يتضح أن الحديث عن زيد وأنه يشبه الأسد فقط .

يقول عبدالقاهر في الاستعارة « تسقط ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردتَه ، وذلك أن تقول « عنت لنا ظبية » وأنت تريد امرأة و « وردنا بحراً » وأنت تريد الممدوح . فأنت في هذا النحو من الكلام إنما تعرف أن المتكلم لم يرد ما الاسم* موضوع له في أصل اللغة بدليل الحال أو إفصاح المقال بعد السؤال أو يفحوى الكلام وما يتلوه من الأوصاف »^(١) .

فالاستعارة تقتضي إسقاط ذكر المشبه من الجملة بحيث لا يعرف أن الاسم مستعمل في غير ما وضع له إلا بقرينة تدل على ذلك ، أما التشبيه فلا يكون مثل ذلك بل هو « أن نذكر كل واحد من المشبه والمشبه به فنقول : « زيد أسد » و « هند بدر » و « هذا الرجل الذي تراه سيف صارم على أعدائك »^(٢) .

فالمشبه والمشبه به موجودان ولاداعي لوجود قرينة لأن الكلام جار على الحقيقة .

(*) ما الاسم : أي المعنى الذي وضع له الاسم في اللغة .

(١) نفس المرجع ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ . (٢) نفس المرجع ص ٢٩٧ .

وهذا مائقره أيضاً في التمثيل حيث يقول : « والمثل لا يوجب شيئاً من هذه الأحكام ، فلا هو يقتضي تردد اللفظ بين احتمال شيئين ولا أن يُدعى معناه للشيء ولكنه يدع اللفظ مستقراً على أصله »^(١) .

ثم يزيد الإمام الأمر وضوحاً بذكر مثال يوضح به حال الاستعارة وحال التشبيه فيقول : « فكذلك قولك « هو أسد » ليس في ظاهره تشبيهاً لأن التشبيه يحصل بذكر « الكاف » أو « مثل » أو نحوهما فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فلن موضوعه من حيث الصورة يوجب قصدك التشبيه لاستحالة أن يكون له معنى وهو على ظاهره »^(٢) .

ومن الملحوظ على عبدالقاهر أن له عناية بالنظر إلى الاستعمالات الجارية واتخاذها وسيلة للتوضيح والإقناع ، ولإزالة هذه الشبهة وإيضاحه لفكرته يضرب مثلاً فيقول : « وله مثال من طريق العادة وهو أن مثل الاسم مثل الهيئة التي يستدل بها على الأجناس كزئ الملوك وزئ السوق ، فكما أنك لو خلعت من الرجل أثواب السوق ونفيت عنه كل شيء يختص بالسوقه وألبسته زئ الملوك فأبديته للناس في صورة الملوك حتى يتوهموه ملكاً وحتى لا يصلوا إلى معرفة حاله إلا بإخبار أو اختبار واستدلال من غير الظاهر كنت قد أعرتة هيئة الملك وزئ على الحقيقة . ولو أنك ألقيت عليه بعض مايلبسه الملك من غير أن تعريه من المعاني التي تدل على كونه سوقة لم تكن قد أعرتة بالحقيقة هيئة الملك ؛ لأن المقصود من هيئة الملك أن يحصل بها المهابة في النفس وأن يتوهم العظمة ولا يحصل ذلك مع وجود الأوصاف الدالة على أن الرجل سوقة . افرض هذه الموازنة في الشيء الواحد كالثوب الواحد يعاره الرجل فيلبسه على ثوبه أو منفرداً وإنما اعتبر الهيئة وهي تحصل بمجموع

(١) نفس المرجع ص ٢٢٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٠٠ .

أشياء ، وذلك أن الهيئة هي التي يشبه حالها حال الاسم ؛ لأن الهيئة تخص جنساً دون جنس ، كما أن الاسم كذلك ، والثوب على الإطلاق لا يفعل ذلك إلا بخصائص تقترب به وتراعى معه ، فإذا كان السامع قولك « زيد أسد » لا يتوهم أنك قصدت « أسداً » على الحقيقة لم يكن الاسم قد لحقه ولم تكن قد أعرته إياه إشارة صحيحة كما أنك لم تُعر الرجل هيئة الملك حين لم تزل عنه ما يعلم به أنه ليس بملك ^(١) .

ففي قولنا « رأيت أسداً » نكون قد تركنا لفظ الرجل جانباً - كما ننزع عن السوقي ثيابه - ووضعنا له لفظ الأسد - كما نلبس السوقي ثياب الملوك - فيُظن أن الرجل أسد كما يُظن أن السوقي ملك .

وهذه هي الاستعارة . أما إن قلت « زيد أسد » فأنت تكون كمن يلتقى بعض ما يلبسه الملك على السوقي من غير أن تجرده من الأمور التي تدل على أنه سوقي ، وبذلك تكون قد شبهته (فقط) بالملك ، فيكون قولك « زيد أسد » تشبيهاً لا استعارة .

ويتحدث الإمام عن حقيقة الاستعارة في اللغة والعادة فيقول « إن من شرط المستعار أن يحصل للمستعير منافع على الحد الذي يحصل للمالك ، فإن كان ثوباً لبسه كما لبسه وإن كان أداة استعملها في الشيء تصلح له حتى إن الرائي إذا رآه معه لم تفصل حاله عنده من حال ما هو ملك يد ليس بعاريه . . . وإذا كان الأمر كذلك ثم وجدنا الاسم في قولك « عنت ظبية » يعقل من إطلاقه أنك قصدت الجنس المعلوم ولا يعلم أنك قصدت امرأة فقد وقع من المرأة في هذا الكلام موقعه من ذلك الحيوان على الصحة ، فكان ذلك بمنزلة أن المستعير ينتفع بالمستعار انتفاع مالكة فيلبسه لبسه ويتجمل به

(٢) نفس المرجع ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

تجملته ويكون مكانه عنده مكان الشيء المملوك حتى يعتقد من ينظر إلى الظاهر أنه له «^(١)» .

فالمستعير لا بد أن ينتفع بما استعاره المالك تماماً ، أما في التشبيه فيقول : « ولما وجدنا الاسم في قولك « زيد أسد » لا يقع من زيد ذلك الموقع من حيث إن ذكره باسمه يمنع من أن يصير الاسم مطلقاً عليه ومتناولاً له على حد تناوله ما وضع له كان وزان ذلك وزان أن تضع عند الرجل ثوباً وتمنعه أن يلبسه ، أو بمنزلة أن تطرح عليه طرف ثوب كافته عليك ، فلا يكون ذلك عارية صحيحة لأنك تدخله في جملة ولم تعطه صورة ما يختص به ويصير إليه ويخفي كونه لك دونه فاعرفه «^(٢)» .

فلذا قلت : « عنت لنا ظبية » فقد أفدّت الحساء كل ما تتصف به الظبية وهذه هي الاستعارة في حين أنك إذا قلت « زيد أسد » فلن زيدا لا يقع ذلك الموقع لتصريحك باسمه ، فأنت في ذلك كمن يطرح على رجل طرف ثوب كافته^(٣) عليه^(٤) ، فلا شك أن ذلك ليس بعارية صحيحة ، ويكون قولك « زيد أسد » تشبيهاً لاستعارة .

وعلى هذا فإذا قلنا « زيد أسد » فقد صرحنا بذكر المشبه والمشبّه به وأبقينا كلا منهما على حاله ، فزيد باق في جنسه وكذلك الأسد وإنما جُمع بينهما في صفة من الصفات . أما قولنا « رأيت أسداً » فقد أخرجنا المستعار له من جنسه وأدخلناه في جنس المستعار منه ادعاءً .

(١) نفس المرجع ص ٣٠١ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٣) كافة الثوب .

(٤) على الطارح .

كما أن مما لاشك فيه أن شجاعة الإنسان ليست كشجاعة الحيوان « الأسد »
 وأنها في الحيوان تكاد تكون كاملة ، فقولنا « زيد كالأسد » يفيد مساواة زيد
 بالأسد في الشجاعة ، ففي هذا القول إلحاق ناقص بكامل ، أما في قولنا « رأيت
 أسداً » فالقضية هنا قضية ادعاء الاتحاد بين المستعار له (المشبه) والمستعار منه
 (المشبه به) .

الفرق السادس :

صور التشبيه وصور الاستعارة :

يأتي هذا الفرق من طريق موضوع الكلام وأساليبه .

إن الحالة التي يخلط فيها بين التشبيه والاستعارة هي الحالة التي يقع فيها الاسم
 خبر مبتدأ ، أو خبراً لكان ، أو مفعولاً ثانياً لباب علمت أو حالاً . فالاسم في
 هذه المواضع إنما يكون لإثبات معناه ، حتى وإن دخل النفي عليه تعلق النفي
 بمعناه وأيضاً فلو قال قائل : « زيد منطلق » فقد أثبت الانطلاق لزيد ، ولو قال
 « مازيد منطلقاً » فقد نفى الانطلاق عن زيد ، كذلك إذا قال « زيد أسد » و
 « رأيت أسداً » فقد جعل اسم المشبه به « أسداً » خبراً عن المشبه « زيد » ،
 وبدهي أننا في مثل هذا القول لانريد إثبات الجنسية لزيد على الحقيقة وإنما نريد
 إثبات شبه من الجنس له . إذن فنحن قد أتينا بالاسم لنحدث به التشبيه ،
 فيكون الأجدر بنا أن نسمي مثل هذا القول « تشبيهاً » . يقول الإمام في ذلك :
 « وإذا كان الأمر كذلك فأنت إذا قلت « زيد أسد » و « رأيت أسداً » فقد
 جعلت اسم المشبه به خبراً عن المشبه . والاسم إذا كان خبراً عن الشيء كان خبراً
 عنه إما لإثبات وصف هو مشتق منه لذلك الشيء كالانطلاق في قولك « زيد
 منطلق » أو لإثبات جنسية هو موضوع لها كقولك « هذا رجل » فإذا امتنع في قولنا
 « زيد أسد » أن تثبت الجنسية لزيد على الحقيقة كان لإثبات شبه من الجنس

له ، وإذا كنّا إنما ثبت شبه الجنس فقد اجتلبنا الاسم لنحدث به التشبيه الآن ونقرره وندخله في حيّز الحصول والثبوت . وإذا كان كذلك كان خليقاً بأن نسمّيه تشبيهاً إذ كان إنما جاء ليفيده ويوجبه ^(١) .

أما الحالة الثانية التي يكون فيها الاسم استعارة بدون خلاف فهي « حالة إذا وقع الاسم فيها لم يكن الاسم مجتبلاً لإثبات معناه للشيء ولا الكلام موضوعاً لذلك لأن هذا حكم لا يكون إلا إذا كان الاسم في منزلة الخبر من المبتدأ . فأما إذا لم يكن كذلك وكان مبتدأ بنفسه أو فاعلاً أو مفعولاً أو مضافاً إليه فأنت واضع كلامك لإثبات أمر آخر غير ماهو معنى الاسم » ^(٢) .

أي أن الاسم في الاستعارة لا يؤتى به لإثبات معناه لشيء آخر حين يكون مبتدأ أو فاعلاً أو مفعولاً . ويضرب الإمام الأمثلة ليزيد الأمر وضوحاً .
فيقول : « بيان ذلك أنك إذا قلت « جاعني أسد » و « رأيت أسداً » و « مررت بأسد » فقد وضعت الكلام لإثبات المجيء واقعاً من الأسد والرؤية والمرور واقعين منك عليه . وكذلك إن قلت « الأسد مقبل » فالكلام موضوع لإثبات الإقبال للأسد لا لإثبات معنى الأسد . وإذا كان الأمر كذلك ثم قلت « عنت لنا ظبية » و « هزرت سيفاً صارماً على الأعداء » وأنت تعني بالظبية امرأة وبالسيف رجلاً ، لم يكن ذكرك للاسمين في كلامك هذا لإثبات الشبه المقصود الآن . وكيف يتصور أن نقصد إلى إثبات الشبه منهما بشيء وأنت لم تذكر قبلهما شيئاً ينصرف إثبات الشبه إليه ، وإنما ثبتت الشبه من طريق الرجوع إلى الحال والبحث عن خبيء في نفس المتكلم . وإذا كان كذلك بان أن الاسم في قولك « زيد أسد » مقصود به إيقاع التشبيه في الحال وإيجابه ،

(١) نفس المرجع ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٠٣ .

وأما في قولك « عنت لنا ظبية » و « سللت سيفاً على العدو » فوضع الاسم هكذا انتهازاً واقتضاباً على المقصود وإدعاءً أنه من الجنس الذي وضع له الاسم في أصل اللغة «^(١)» .

فلن أنت أتيت بالاسم لتثبت معناه لشيء آخر كان ذلك تشبيهاً كما أوضحنا ، أما إن لم يكن كذلك فهو استعارة ، كمثل قولك « الأسد مقبل » فمدار الحديث هنا أن الإقبال قد حدث من الأسد فعلاً . إذن فالاسم في هذه الحالة لم يؤت به لإثبات معناه لشيء آخر .

وقد حقق الخطيب في هذه القضية وجعل هذا الفرق من أول الفروق فقال « فلذا قلت « زيد أسد » فقد وضعت كلامك في الظاهر لإثبات معنى الأسد لزيد ، وإذا امتنع إثبات ذلك له على الحقيقة كان لإثبات شبه من الأسد له ، فيكون اجتلابه لإثبات التشبيه فيكون خليقاً بأن يسمى تشبيهاً ، إذ كان إنما جاء ليفيده بخلاف الحالة الأولى - يقصد الاستعارة - ، فلن الاسم فيها لم يجتلب لإثبات معناه للشيء ، كما إذا قلت : جاءني أسد ، ورأيت أسداً ، فلن الكلام في ذلك موضوع لإثبات المجيء واقعاً من الأسد ، والرؤية واقعة منك عليه ، لا لإثبات معنى الأسد لشيء ، فلم يكن ذكر المشبه به لإثبات التشبيه ، وصار قصد التشبيه مكنوناً في الضمير ، لا يعلم إلا بعد الرجوع إلى شيء من النظر «^(٢)» .

فالخطيب يبين أن قولنا : « زيد أسد » تشبيه ، وقولنا « عنت لنا ظبية »^(٣) استعارة كما أنه يشير إلى أن هناك من الناس من ذهب إلى أن الاسم في الحالة الأولى استعارة لإجرائه على المشبه مع حذف كلمة تشبيه ، لكنه يوضح أن هذا

(١) نفس المرجع ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٣) إذا أطلقت الظبية على غير الحيوان المعروف .

« الخلاف لفظي راجع إلى الكشف عن معنى الاستعارة والتشبيه في الاصطلاح ، وما اخترناه هو الأقرب »^(١) .

ومما لا يمكن إنكاره الآن ، هذا الجهد الكبير الذي بذله الإمام لتوضيح الفروق بين التشبيه المحذوف الأداة (البليغ) والاستعارة . ولو اكتفى الإمام بهذا القدر من التوضيح ما لame لائم . ولكنه بعد تقرير كل ماسبق يعود فيجيز إطلاق الاستعارة على التشبيه ، وهو في إجازته هذه إنما يوجد فرقاً آخرأ بين التشبيه المحذوف الأداة والاستعارة .

الفرق السابع :

يجعل عبدالقاهر أساس هذا الفرق هو سهولة دخول حروف التشبيه في الجملة أو صعوبته ، وقد وضح متى تكون السهولة ومتى تكون الاستحالة . يقول « فإن أبيت إلا أن تطلق الاستعارة على هذا القسم الثاني فينبغي أن تعلم أن إطلاقها لا يجوز في كل موضع يحسن دخول حرف التشبيه فيه بسهولة ، وذلك نحو قولك « هو الأسد » و « هو شمس النهار » و « هو البدر حسناً وبهجة والقضيب عطفاً » وهكذا كل موضع ذكر فيه المشبه به بلفظ التعريف ، فإن قلت « هو بحر » و « هو ليث » و « وجدته بحراً » وأردت أن تقول إنه استعارة كنت أعذر وأشبه بأن تكون على جانب من القياس ومتشبيهاً بطرف من الصواب ، وذلك أن الاسم قد خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه ، فلو قلت « هو كأسد » و « هو كبحر » كان كلاماً نازلاً غير مقبول كما يكون قولك « هو كالأسد » إلا أنه وإن كان لا يحسن فيه « الكاف » فإنه يحسن فيه « كأن »

(١) نفس المرجع ص ٤١٠ .

كقولك « كأنه أسد » أو مايجري مجرى « كأن » في نحو تحسبه « أسداً » و « تخاله سيفاً »^(١) .

وعبد القاهر يتدرج في هذه القضية ، من يسر إطلاق الاستعارة ، إلى صعوبة إطلاقها ، ثم إلى استحالتها .

أولاً : إذا كان المشبه به معرّفاً كقولنا « هو الأسد » فلن دخول أدوات التشبيه : الكاف ، كأن ، حسب^(٢) . . . إلخ يكون سهلاً ، وفي هذه الحالة لا يجوز إطلاق الاستعارة بتاتا .

ثانياً : إذا كان المشبه به نكرة كقولنا « هو أسد » فلن دخول بعض أدوات التشبيه لايحسن ، كحرف الكاف ، إذا أردنا إدخاله على مثل هذه الجملة فقلنا « هو كأسد » كان كلاماً غير مقبول . لكننا لو أدخلنا حرفاً آخر ككأن فقلنا « كأنه أسد » لكان كلاماً سليماً .

وإن كان عبد القاهر هنا يرى أن من يطلق الاستعارة على مثل هذا النوع يكون معذوراً إلا أنه يرى أن ذلك ليس تمام الصواب ، بل الصواب أن يعد تشبيهاً كالحالة السابقة ، دليل ذلك قوله : « كنت أعذر وأشبه بأن تكون على جانب من القياس ومتشبيهاً بطرف من الصواب »^(٣) .

ثالثاً : وهي الحالة التي يغمض فيها تقدير حروف التشبيه ، وفيها يفضل الإمام إطلاق الاستعارة . يقول « فلن غمض مكان » الكاف وكأن « بأن يوصف الاسم الذي فيه التشبيه بصفة لا تكون في ذلك الجنس وأمر خاص غريب فقليل » هو

(١) الأسرار ص ٣٠٤ - ٣٠٥ . وفي هذا الموضع تأكيد على عدم اعتبار « السفر ميزان القوم » و « الفكرة مخ العمل » من الاستعارة لأن المثاليين مما يحسن دخول حرف التشبيه عليهما .

(٢) لم يحسم البلاغيون أن « حسب » حرف تشبيه . (٣) نفس المرجع ص ٣٠٤ .

بحر من البلاغة » و « هو بدر يسكن الأرض » و « هو شمس لاتغيب »
وكقوله :

شمس تألق والفراق غروبها عنّا وبدر والصدود كسوفه

فهو أقرب إلى أن نسميه استعارة لأنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه إذ
لاتصل إلى الكاف حتى تبطل بنية الكلام وتبدل صورته فتقول « هو كالشمس
المتألقة إلا أن فراقها هو الغروب وكالبدر إلا أن صدوده الكسوف »^(١) .

فلا يدخل حرف التشبيه على مثل هذه الجمل إلا إذا أحدثت فيه شيئاً من
« التغير » ، لذلك فضل عبدالقاهر إطلاق الاستعارة عليها .

إذ إن دخول حرف التشبيه في قولنا « هو بحر من البلاغة » لايسوغ إلا إذا
غيرنا العبارة ، لأن اعتبار التشبيه هنا يعني وجود بحر لاعهد به وهو بحر من
البلاغة ، وكذلك في « هو بدر يسكن الأرض » و « هو شمس لاتغيب » .
أما قول الشاعر :

شمس تألق والفراق غروبها عنّا وبدر الصدود كسوفه

فالذي أراه في هذا البيت أنه لامانع من أن نقول : هو كالشمس المتألقة ،
باعتبار « أل » في « الفراق » وفي « الصدود » عوضاً عن ضمير المشبه
ويكون تقدير الكلام : وفراقه - أي المشبه - غروب الشمس ، وصدوده كسوف
البدر ، وبذلك لاتبطل بنية الكلام ولاتتبدل الصورة فيكون هذا البيت من قبل
التشبيه .

رابعاً : ومما يقرب فيه إطلاق الاستعارة أن يختل تقدير التشبيه كقول
المتنبي :

أسد ، دم الأسد الهزبر خضابه موت ، فريص الموت منه ترعد

(١) نفس المرجع ص ٣٠٥ .

يقول الشيخ في التعليق على هذا البيت : « لاسبيل لك إلى أن تقول « هو كالأسد » و « هو كالموت » لما يكون في ذلك من التناقض لأنك إذا قلت « هو كالأسد » فقد شبهته بجنس السبع المعروف ومحال أن تجعله محمولاً في الشبه على هذا الجنس أولاً ثم تجعل دم الهزبر الذي هو أقوى الجنس خضاب يده لأن حملك له عليه في الشبه دليل على أنه دونه ، وقولك بعد « دم الهزبر من الأسود خضابه » دليل على أنه فوقها . وكذلك محال أن تشبه بالموت المعروف ثم تجعله يخافه ، وترتعد منه أكتافه » (١) .

يقول المتنبي : « هو شجاع يتلطح بدم الأسد حتى يصير كالخضاب له ، وهو موت لأعدائه ، حتى ليخافه الموت وترتعد منه فرائصه » (٢) .

وإطلاق الاستعارة هنا أقرب من إطلاق التشبيه (٣) فإذا كان تشبيه الممدوح بالأسد يدل على شجاعة ثم يزداد أن يفترس أقوى الأسود فاستعارة الأسد له أقرب إلى ذلك إذ فيها دعوى الاتحاد بينه وبين الأسد .

ومما يختل فيه تقدير بعض أدوات التشبيه قول البحتري :

سحاب عدائي سيله وهو مسبل ويحر عدائي فيضه وهو مفعم
ويدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رحلي منه أسود مظلم

فلو قُدِّر التشبيه في هذا البيت ففيل « هو كالبدر الذي أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رحلي مظلم لم يضيء به » كان شيئاً محالاً ، وذلك أن البدر في هذه الحالة يكون قد ملأ الأرض ضياءاً ومنعه موضعاً واحداً فقط وهذا ليس من صفات البدر المعروف . والكلام في هذا البيت موضوع لا لإثبات الشبه بين الممدوح والبدر

(١) نفس المرجع ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) شرح ديوان المتنبي وضعه عبدالرحمن البرقوقي ج ٢ ص ٥٧ .

(٣) التشبيه لا يطلق لما فيه من التناقض - كما ذكر عبدالقاهر .

« ولكن لإثبات الصفة في واحد متجدد حادث من جنس البدر لم تعرف تلك الصفة للبدر فيصير بمنزلة قولك « زيد رجل يقرى الضيوف ويفعل كيت وكيت » فلا يكون قصدك إثبات زيد رجلاً ولكن إثبات الصفة التي ذكرتها له ، فإذا خرج الاسم الذي يتعلق به التشبيه من أن يكون مقصوداً بالإثبات تبين أنه خارج عن الأصل الذي تقدم من كون الاسم لإثبات الشبه . فالبحتري في قوله « وبدر أضاء الأرض » قد بنى كلامه على أن كون الممدوح بديراً أمر قد استقر وثبت وإنما يعمل في إثبات الصفة الغريبة والحالة التي هي موضع التعجب . وكما يمتنع دخول الكاف في هذا النحو كذلك يمتنع دخول « كأن » و « تحسب » و « تخال »^(١) .

ثم يخلص عبدالقاهر من هذا إلى نتيجة وهي قوله « وتأمل هذه النكتة فإنه يضعف ثانياً إطلاق الاستعارة على هذا النحو أيضاً ، لأن موضوع الاستعارة - كيف دارت القضية - على التشبيه »^(٢) .

وعلى الرغم من أن عبدالقاهر يرى أن هذين البيتين - بيت المتنبي وبيت البُحتري - مما يختل تقدير حرف التشبيه فيه ، فهو يعد الأول من قبيل الاستعارة وينفي عن الثاني التشبيه والاستعارة - والسبب في ذلك - كما يفهم من كلام عبدالقاهر - أن قول المتنبي إذا اعتبر تشبيهاً كان كلاماً متناقضاً ، أما اعتبار بيت البُحتري من باب التشبيه فليس متناقضاً فحسب بل محال لعدم وجود هذه الصفة في البدر المعروف ، وعلى هذا تنتفي الاستعارة أيضاً لأنها مبنية على التشبيه .

ومن هنا يظهر اضطراب الإمام في الحكم على بيت المتنبي ، إذ إنه نفى عنه التشبيه فكان ينبغي أن ينفي الاستعارة أيضاً لأنها مبنية على التشبيه ، وهو نفس ما فعله في بيت البحتري .

(١) الأسرار ص ٣٠٧ . (٢) نفس المرجع ص ٣٠٨ .

هذا هو مذهب الشيخ في هذين البيتين ، وقد أوضحت رأيي في بيت المتنبي ، وعلى هذا يكون كلام البحري على تقدير محذوف « هو كالسحاب وهو كالبحر وهو كاليد » . أما الصفة الجديدة في قوله : وموضع رحلي منه أسود مظلم . فمن باب التخيل . فيكون البيت من قبيل التشبيه ، والمعنى فيه : أن الممدوح في حبه وعطفه على الناس كاليد الذي يضيء الأرض من المشرق إلى المغرب ، ثم لما أراد الشاعر أن يستدر عطف ممدوحه بين له أنه لم يحظ بما حظي به غيره بل إن حياته اسودت وأظلمت عليه .

وكما أوضح الإمام الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه والتمثيل فقد أوضح الفرق بين التشبيه والتمثيل أيضاً ليصل بنا إلى الاستعارة التمثيلية .

الفرق بين التشبيه والتمثيل :

يبدأ الإمام حديثه عن الفرق بين التشبيه والتمثيل بتقرير أمر ، وهو أن التشبيه « لا يحتاج فيه إلى تأول ، والآخر أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأول »^(١) . والذي لا يحتاج إلى تأول هو ما يدخل تحت الحواس ، كتشبيه شيء بشيء من جهة الشكل والهيئة واللون والصوت والطعم والرائحة ، فتشبيه الخد بالورد ، والفواكه الحلوة بالعسل سهل المأخذ ، وكذلك ما كان من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة ، فوجه الشبه في هذا كله لا يحتاج فيه إلى إعمال فكر وبذل جهد ، وهذا هو التشبيه .

أما التمثيل فهو ما يحصل بضرب من التأول وهو على درجات ، فمنه القريب المأخذ كقولنا « هذه حجة كالشمس في الظهور » ، ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل مثل « ألفاظه كالماء في السلاسة » ، ومنه ما يدق ويغضض حتى يحتاج في

(١) نفس المرجع ص ٨٩ .

استخراجه إلى رويّة وتفكّر كقول كعب الأشقري « كانوا كالحلقة المفرغة لا يُدري أين طرفاها » ، فمثل هذا لانجده إلا في الآداب والحكم المأثورة التي لا يفهمها إلا من ارتفع عن طبقة العامة ، ووجه الشبه في هذا يكون عقلياً ، لكن الإمام يقول في البداية إنه قد ينتزع من شيء واحد وقد ينتزع من عدة أمور ثم يعود ويقرر أن التمثيل لا يكون إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر ووجه الشبه عقلي محض .

والجدير بالذكر أن الإمام عند إيرادِه لأمثلة من التمثيل يخلط بين الاستعارة التمثيلية والتمثيل ، فنجدُه يُمثّل للتمثيل بقول القائل « أخذ القوس باريها » و « مازال يقتل منه في الذروة والغارب » و « بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى »^(١) .

أما في الدلائل فيسمى ما جاء على هذا النمط « التمثيل الذي يكون مجازاً لمجئتك به على حد الاستعارة »^(٢) وهو « كل كلام رأيته قد نحو فيه نحو التمثيل ثم لم يفصحوا بذلك ، وأخرجوا اللفظ مُخرجه إذا لم يريدوا تمثيلاً »^(٣) .

(١) نفس المرجع من ص ٨١ - ٩٩ .

(٢) الدلائل ص ٦٨ .

(٣) نفس المرجع ص ٦٩ .

الفصل الثالث

أقسام الاستعارة ،

الفروق بينها ، قوانينها

لقد حظيت الاستعارة من الإمام عبدالقاهر باهتمام بالغ إذ بيّن ماهيّتها وكشف عن حقيقتها ومكانتها من الألوان البلاغية ، وجدير بعالم يقدّر الاستعارة قدرها ألا ينسى أهمية أقسامها ، لذلك نجده - رحمه الله - يفصّل القول فيها أتم تفصيل ، وإن لم يسم هذه الأقسام ، وذلك لايؤاخذ به ، لأن الشيء بروحه ، وما أوضحه الإمام في الاستعارة هو روح الاستعارة ، ولأن المصطلحات العلمية لم تكن قد أخذت مكانها الذائع إلى وقته .

يقسم عبدالقاهر الاستعارة تقسيمات عدة باعتباريات متعددة .
أول هذه التقسيمات :

١ - قسم من حيث الفائدة :

لكل بناء دعامة وأساس ، فإذا ماعدم الأساس لم يقيم البناء ، والاستعارة عمادها وأساسها التشبيه ، فإذا لم يكن تشبيه فلا استعارة . ومن هنا نجد عبدالقاهر عندما ابتدأ بأول تقسيم للاستعارة أحسنّ كأنه أخطأ حين وسم بعض الأساليب بالاستعارة مع عدم وجود تشبيه ، ثم استدرك أخيراً ، فقد قسم الاستعارة قسمين : « أحدهما أن يكون لنقلك فائدة ، والثاني لا يكون له فائدة »^(١) .

وحيث إن الاستعارة تعني النقل - أولاً - والتشبيه يعني الفائدة - ثانياً - فلن الحكم على الاستعارة يكون تبعاً لقصد التشبيه (الفائدة) فلن وُجد كانت « مفيدة » وإن لم يوجد ف « غير مفيدة » . وقد فضّل عبدالقاهر البدء بالحديث عن هذا الأخير لقصر باعه وقلة اتساعه قائلاً : « وموضع هذا الذي لايفيد نقله حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة والتتوق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها ، كوضعهم للمعضو

(١) الأسرار ص ٢٩ .

الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان نحو وضع الشفة للإنسان والمشفر للبعير والجحفلة للفرس وما شاكل ذلك من فروق ربما وجدت في غير لغة العرب وربما لم توجد ، فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها من غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجاز به موضعه «^(١)» .

فهذا بيان للمواضع التي يحدث فيها النقل لغير فائدة ، فاللغة العربية تمتاز بكثرة مفرداتها وغمارة معانيها ، ومن ذلك وضعهم للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان كوضع الشفة للإنسان والمشفر للبعير والجحفلة للفرس ، فإذا استعمل المتكلم لفظة الشفة للحيوان دون أن يقصد التشبيه كان هذا النقل غير مفيد .

وقد استعمل هذا النقل على السنة الشعراء ، منه قول العجاج يصف امرأة :

أزمان أبدت واضحاً مفجعاً أغر براقاً وطرفاً أبرجاً

ومقلّة وحاجباً مزججاً وفاحماً ومرسناً مسرجاً^(٢)

فالشاعر هنا استعمل المرسن للمرأة وهو موضوع للحيوان ، ومن هذا :

(١) الأسرار ص ٢٩ .

(٢) سمط اللآلى لأبي عبيد البكري ص ٨٦٦ .

أزمان : اسم المرأة التي يصفها الراجز^(١) .

أزمان : المفرد : الزمن والزمان وهو اسم لقليل الوقت وكثيره ، وفي المحكم : الزمن والزمان العصر^(٢) ، ومفلج الثنايا أي متفرجها^(٣) ، والبرج : سعة في العين . والمزجج الطويل السابع^(٤) ، وفاحماً : أي شعراً أسود كالفحم ، ومرسناً أي أنفاً ، مسرجاً : أي كالسيف السريجي في الدقة والاستواء . . . أو كالسراج في البريق^(٥) .

(١) المطول ص ١٨ .

(٢) لسان العرب ج ١٣ ص ١٩٩ .

(٣) لسان العرب ج ٢ ص ٣٤٧ ، وفيه أيضاً من الحديث : أنه لعن المتفلجات للحسن ، أي أنه صفة للحسن وإظهار الجمال .

(٤) سمط اللآلى لأبي عبيد البكري ص ٨٦٦ .

(٥) المطول ص ١٨ .

· الضرب قول أبي النجم العجلي يصف إبلاً :

تسمع للماء كصوت المسجل بين وريديها وبين الجحفل^(١)
فجعل للأيل جحافل وهي لذوات الحوافر (الخيل والحمير والبغال) ، وقال أبو
النجم - أيضاً :

والحشو من حفافها كالحنظل .

فاستعمل الحفان لصغار الإبل وهو لصغار النعام ، وهناك من استعمل الشفة
للفرس وهي للإنسان كقول أبي داود الإيادي :

فبتنا جلوساً لدى مهرنا ننزع من شفثيه الصفار^(٢)

وبعد ذكر عبدالقاهر لهذه الأمثلة يعلق قائلاً : « فهذا ونحوه لا يفيدك شيئاً لو
لزمت الأصلي لم يحصل لك ، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله « من شفثيه »
وقوله « من جحفلتيه » لو قاله ، إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم
حسب^(٣) » ، فالاستعارة غير المفيدة هي تلك التي لاتأتي بجديد ولاتكون لغرض
من الأغراض المعنوية ، فالشاعر عندما قال : « وفاحماً ومرسناً مسرجاً » لم
يقصد إلا أنفاً يبرق كالسراج ولم يرد « أن يشبه أنف المرأة بأنف نوع من الحيوان
لأن هذا العضو من غير الإنسان لا يوصف بالحسن كما يكون ذلك في العين
والجيد »^(٤) .

(١) المسجل : الحمار الوحشي الذي يسجل نهاقه كأنه يحسنه : جمهرة اللغة ، لابن دريد

ج ٣ ص ٤٩٠ .

(٢) الصفار : ما بقي في أسنان الدابة من التبن والعلف .

(٣) الأسرار ص ٣٠ .

(٤) نفس المرجع ص ٥٩ .

وكذلك الذي قال : « نزع من شفتيه الصفارا » ، يستعمل الشفة في الفرس ، والأصل أن يقول « الجحفلة » لأنها موضوعة للفرس ، فهو بنقله هذا لم يفد جديداً بل على العكس ، كان الأحرى به أن يستعمل « الجحفلة » ؛ لأن « الاستعارة ههنا بأن تنقصك جزءاً من الفائدة أشبه ، وذلك أن الاسم في هذا النحو إذا نفيت عن نفسك دخول الاشتراك عليه بالاستعارة دلّ ذكره على العضو وماهو منه ، فإذا قلت « الشفة » دل على الإنسان ، أعني يدل على أنك قصدت هذا العضو من الإنسان دون غيره ، فإذا توهمت جري الاستعارة في الاسم زالت عنه هذه الدلالة بانقلاب اختصاصها إلى الاشتراك . فإذا قلت « الشفة » في موضع قد جرى فيه ذكر الإنسان والفرس دخل على السامع بعض الشبهة لتجويزه أن تكون استعرت الاسم للفرس ، ولو فرضنا أن تُعَدَم هذه الاستعارة من أصلها وتُحْظَر لما كان لهذه الشبهة طريق على المخاطب فاعرفه ^(١) .

والذي يُفْهَم هنا من كلام عبدالقاهر : أن الأفضل هو استعمال الاسم الموضوع للعضو فيما وضع له إن لم يقصد التشبيه ، لأن الاستعارة في مثل هذه المواضع تنقص جزءاً من الفائدة وذلك :

١ - إن الأصل في الكلام هو الحقيقة ولا يعدل عنها إلا لغرض بلاغي ، فإذا لم يُرَاعَ هذا الغرض فالأفضل استعمال الحقيقة .

٢ - إذا استعملت لفظ (الشفة) في مثل هذه المواضع ولم تقصد التشبيه ، فإن مجرد ذكره يدل على الإنسان ويوهم أنك تريد تشبيهاً في حين أنك لا تقصد ذلك ، ولدفع مثل هذا التوهم يُفْضَل استعمال الحقيقة .

(١) نفس المرجع ص ٣٠ ، ٣١ .

٣ - إن اعتبار بيت العجاج من قبيل الاستعارة مناف للغرض ، إذ إن الشاعر - كما هو واضح - يمدح ويصف جمال امرأة ، ومن غير المعقول أن يشبه أنفها بمرسن الحيوان بقصد إبراز الجمال ، فالمرسن لا جمال فيه . ولو أُريدت الاستعارة لكان بالهجاء أشبه .

وما أود بيانه هنا هو أن في هذه الأمثلة - التي يعدها عبدالقاهر من قبيل الاستعارة غير المفيدة - ما يمكن حمله على قصد التشبيه فيكون من قبيل الاستعارة المفيدة ، كقول الشاعر :

والحشو من حَقَّافِها كالحنظل^(١)

يقول الإمام في هذا : « فأجرى الحفان على صغار الإبل وهو موضوع لصغار النعام »^(٢) ، وأقول : لم لا يكون هذا النقل لغرض التشبيه ، إذ إن الشاعر أراد بثّ معاني الرقة والوداعة في صغار الإبل فأجرى عليها ما هو موضوع لصغار النعام . وكثيراً ما شبه الشعراء ولد الناقة بالظليم . ومن هنا جاز استعارة ولد النعام لولد الإبل .

وكذلك قول أبي داؤد الإيادي :

فبتنا جلوساً لدى مهرنا تنزع من شفثيه الصفارا

إن قول الشاعر « فبتنا جلوساً » يوضح أنهم قد قضوا ليلتهم سهرًا إلى جانب هذا المهر ، وهذا يدل على مدى المكانة التي يحظى بها المهر عند القوم ، فقد كان هذا الجلوس إلى جانب المهر للاهتمام والعناية بأمره ، واستعمال الشاعر الشفة في المهر تجعل المهر وكأنه إنسان ليزيد من وضوح العلاقة الحميمة بين القوم والمهر .

(١) جمهرة اللغة لابن دريد ج ٣ ص ٤٩٠ .

(٢) الأسرار ص ٣٠ .

هذا ، وقد أوضح الإمام فرقاً آخرّاً بين الاستعارتين وذلك من جهة اختصاص القسم غير المفيد باللغة العربية لأن مدار أمره على نقل اللفظ وليس قصد التشبيه ، يقول : « وإذا كان مدار أمره على اللفظ لم يتصور أن يكون في غير لغة العرب ، بلئى ، إن وُجد في لغة الفرس مراعاة نحو هذه الفروق ثم نقلوا الشيء من الجنس المخصوص به إلى جنس آخر كانوا قد سلكوا في لغتهم مسلك العرب في لغتها . وليس كذلك المفيد فلإن الكثير منه تراه في عداد ما يشترك فيه أجيال الناس ويجرى به العرف في جميع اللغات - فقولك « رأيت أسداً » تريد وصف رجل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على المبالغة أمر يستوي فيه العربي والعجمي وتجده في كل جيل ، وتسمعه من كل قبيل ، كما أن قولنا « زيد كالأسد » على التصريح بالتشبيه كذلك ، فلا يمكن أن يدعى أنا إذا استعملنا هذا النحو من الاستعارة فقد عمدنا إلى طريقة في المعقولات لا يعرفها غير العرب أو لم تتفق لمن سواهم »^(١) .

أما الفرق الثالث فهو فرق يتعلق بالترجمة ، يقول فيه الإمام : ولو أن مترجماً ترجم قوله^(٢) :

وإلا النعام وحفاناه .

ففسّر الحفّان باللفظ المشترك الذي هو كالأولاد والصغار لأنه لا يجد في اللغة التي يترجم لفظاً خاصاً لكان مصيباً ومؤدياً للكلام كما هو ، ولو أنه ترجم قولنا « رأيت أسداً » نريد رجلاً شجاعاً فذكر ما معناه معنى قولك « شجاعاً شديداً »

(١) نفس المرجع ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) من شعر أسامة بن الحارث الهذليّ في وصف السير في المفازة ، وتمام البيت :

وطغيماً من الألف النأشط .

يعني : وتُبْدَأُ من البقر البيض التي تخرج من أرض إلى أرض .

وترك أن يذكر الاسم الخاص في تلك اللغة بالأسد على هذه الصورة لم يكن مترجماً للكلام بل كان مستأنفاً من عند نفسه كلاماً^(١) .

أي أن الاستعارة غير المفيدة يجوز للمترجم فيها أن يذهب إلى اللفظ المشترك إذا لم يوجد في اللغة المنقول إليها ما يقابل اللفظ المنقول ، إذ لا غرض من لفظ « حفانه » إلا أولاد النعام ، لذلك تجوز الترجمة بأي لفظ يؤدي هذا المعنى كأولاد والصغار ، وهذا ما لا يجوز فيما يكون نقله لغرض ، ففي قولنا « زيد أسد » - ونحن نريد شجاعاً - لا تجوز ترجمته باللفظ الأعم ، لأن هذا المعنى يُعد كلاماً جديداً من وضع المترجم .

أما إن كان مبنى الاستعارة أو النقل على قصد التشبيه كانت استعارة مفيدة لأن النقل فيها من جهة المعنى ، وهي الأولى أن تسمى استعارة « وأعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول^(٢) » وكثرة الإمام للتشدد في الخلاف جعله يذكر هذا القسم مع الاستعارة إلا أنه نبّه على ضعف أمره وسمّاه استعارة غير مفيدة ، يقول : « وأعلم أن الواجب كان أن لا أعدّ وضع الشفة موضع الجحفة والجحفة في مكان المشفر ونظائره التي قدمت ذكرها في الاستعارة وأضن باسمها أن يقع عليه ، ولكنّي رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدّوه معدّها فكرهت التشدد في الخلاف ، واعتددت به في الجملة ونهت على ضعف أمره بأن سمّيته استعارة غير مفيدة^(٣) » .

إذا كان عبد القاهر قد أخرج من الاستعارة ما لم يُقصد فيه التشبيه وأطلق عليه استعارة غير مفيدة ، ومثّل له باستعمال أسماء الأعضاء في غير ما وضعت له ، فإنه لا يفوته أن يوضح أهمية التدقيق في هذا الاستعمال ، فإذا كان الشاعر قد استعمل

(١) الأسرار ص ٣٣ ، ٣٤ . (٢) نفس المرجع ص ٤٠ .

(٣) نفس المرجع ص ٣٧٣ .

المرسن - الموضوع للحيوان - في المرأة - ونحن على يقين أنه لا يقصد التشبيه -
 فلن مثل هذا الاستعمال يُعد من قبيل الاستعارة غير المفيدة . أما إذا كان هذا
 الاستعمال - نفسه - لغرض التشبيه فإنه بذلك ينتقل إلى النوع الثاني - الاستعارة
 المفيدة - ، لذلك نجد عبدالقاهر يَنبَه إلى عدم الخلط بين الاستعمالين فيقول
 « فاعلم أنك قد تجد الشيء يخلط بالضرب الأول الذي هو استعارة من طريق
 اللفظ ويُعد في قبيله وهو إذا حققت ناظر إلى الضرب الآخر الذي هو مستعار من
 جهة المعنى وجار في سبيله »^(١) ثم يتابع بضرب الأمثلة قائلاً « فمن ذلك قولهم
 (إنه لغلظ الجحافل وغلظ المشافر) وذلك أنه كلام يصدر عنهم في مواضع الذم
 فصار بمنزلة أن يقال كأن شفته في الغلظ مشفر البعير وجحفلة الفرس ، وعلى ذلك
 قول الفرزدق :

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي ولكن زنجياً غليظ المشافر

فهذا يتضمن معنى قولك : « ولكن زنجياً كأنه جمل لا يعرفني ولا يهتدي
 لشرفي »^(٢) .

فاستعمال المشفر في الإنسان وهو موضوع للجمل كان لغرض المشابهة بين هذا
 الإنسان والجمل في عدم المعرفة والتميز ، لذلك فإن الاستعارة هنا تكون مفيدة .
 وكذا قول الحطيئة :

قروا جارك العيمان لما جفوته وقَلَصَ عن برد الشراب مشافره^(٣)

(١) نفس المرجع ص ٣٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٤ ، ٣٥ .

يهجو الفرزدق أيوب بن عيسى الضبي لما حبسه بأمر مالك بن مسمع .

(٣) القرى : ما يُقَدَّم للضيف . العيمان : من ذهب إليه وكان به شهوة لشرب اللبن .

قلص : تدانى وانضم .

من الاستعارة المفيدة ، إذ إن الحطيئة لما أراد زيادة التهكم بالزبرقان ورميه بإضاعة الضيف وتركه للضر والبؤس استعار لنفسه اسم عضو من أعضاء الإبل ليدل على سوء حاله وهوانه لديه .

ومنه قول جبيها الأشجعي^(١) :

وأشعث مسترخي العلابي طوحت به الأرض من باد عريض وحاضر

فأبصر ناري وهي شقراء أوقدت بعلياء نشز للعيون النواظر

فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمر به بساق وحافر

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً بهذا المحيّا من محيٍّ وذائر^(٢)

يصف ضعيفاً بسوء الحال في مسيره ومالاقى من جهد ونصب ، فلما جعله أشعث مسترخي العلابي ناسب أن يجعل له حافراً ليزيد من صفة الضر والبؤس التي كان عليها الضيف . فاستعمال الحافر هنا لا لصعوبة القافية بل لغرض التشبه .

ويقول عقفان بن قيس بن عاصم :

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق^(٣)

قوله أظلافه لم تشقق ، يريد به : أنه متعل مترقه لم تشقق قدماه .

وقال أوس بن حجر :

(١) جبيها الأسدي في اللسان .

(٢) العلابي : سمة في صفحة العنق .

يمريه : يستخرج ماعنده من الجري .

(٣) الظلف : ظفر كل ما اجتر ، وهو ظلف البقرة والشاة والظبي وما أشبهها . « كان النعمان ابن المنذر استعمل الغلاق بن عمرو الرياحي على هجائن من يلي أرضه من العرب ، وكانت لعقفان هذا هجائن فأخفاها ، فطلبها الغلاق ، فعمد عقفان بليله حتى أتى النعمان ، فأجاره ولم يأخذ منها شيئاً ، سمط الآلى ، ص ٧٤٦ .

ليبيك الشرب والمدامة وال
 وذاث هِذَم عار نواشرها فغتيان ، طرا ، وطامع طمعا
 تصمت بالماء تولبا جدعا^(١)
 لما كان المقام مقام فقر وضنك وبؤس ناسب أن يصف ولد هذه المرأة المعدمة
 بصفات الأنعام ، فجعل ولدها تولبا .
 وقال عبدة بن الطبيب :
 وقد غدوت وقرن الصبح منفتق ودونه من سواد الليل تجليل
 إذ أصبح الديك يدعو بعض أسرته عند الصباح وهم قوم معازيل^(٢)

٢ - الاستعارة في الاسم والاستعارة في الفعل :

والقسم الذي يعنينا ويهنا من القسمين السابقين هو القسم الذي تظهر
 باستعارته فائدة ومعنى وغرض من الأغراض هو التشبيه ، والحديث عنه طويل لأن
 طرقه تختلف وتتعدد ولا تكتمل إلا بفصول وتقسيمات ، فهو القسم الأولي أن يعد
 استعارة لما فيه من الافتتان وإظهار الحُسن وإبراز البيان في صورة جديدة .

ويقسم عبدالقاهر الاستعارة قسمين : استعارة في الاسم - أي نقل الاسم عن
 مسماه الأصلي - واستعارة في الفعل - أي نقل مصدر الفعل ثم اشتقاق فعل منه
 حيث يقول « اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فإنها لا تخلو من أن تكون
 اسماً أو فعلاً »^(٣) .

(١) الهمدم : الثوب الخلق المرقع . التولب : ولد الحمار . جدع : سوء الغذاء .

النواشر : عصب الذراع من داخل وخارج .

(٢) معازيل : الذين لاسلاح معهم . وأراد بقوله « وهم قوم » : الدجاج .

(٣) الأسرار ص ٤٢ .

وهو في هذا يقصد ما أطلق عليه المتأخرون بعده بالاستعارة الأصلية (في الاسم) ، والاستعارة التبعية (في الفعل)^(١) .
ثم يتناول كلاً من الاستعارتين بالشرح ، فيقسم الاستعارة في الاسم قسمين :

أ - ماله مقابل :

وهو الاسم الذي « ننقله عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه وتجعله متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف وذلك قولك « رأيت أسداً » وأنت تعني رجلاً شجاعاً و « عنت لنا ظبية » وأنت تعني امرأة و « أبديت نوراً » وأنت تعني هدى وبياناً وحجة وما شاكل ذلك »^(٢) .

فالأسد هنا يقابله الرجل ، والظبية تقابلها المرأة ، والنور يقابله الهدى والبيان ، فالتشبيه يتضح هنا دون أن يكون هناك حاجة إلى التفكير الطويل ، لأن الاسم « في هذا كله كما تراه متناول شيئاً معلوماً يمكن أن ينص عليه فيقال : إنه عني بالاسم وكُني به عنه ونقل عن مسماه الأصلي فجعل اسماً له على سبيل الإعارة والمبالغة في التشبيه »^(٣) . وهذا ما لاندلجته في القسم الثاني .

ب - ما ليس له مقابل :

وفيه « يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يُشار إليه فيقال هذا هو المراد بالاسم والذي أُستعير له وجُعِلَ خليفة لاسمه الأصلي ونائباً منابه ومثاله قول لبيد :

(١) جاء المتأخرون فجعلوا الاستعارة التبعية في الفعل والمشتقات والحرف .

(٢) نفس المرجع ص ٤٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٢ .

وغداة ربح قد كشفت وقرة . إذ أصبحت بيد الشمال زمامها*
 وذلك أنه جعل للشمال يداً ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى
 اليد عليه كإجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك « انبرى لي أسد يزأر »
 و « سللت سيفاً على العدو لا يُفل »^(١) .

فهذا النوع من الاستعارة لا يوجد فيه مقابل للمستعار ، كما هو واضح في بيت
 لبید ، إذ لا وجود لشيء يقابل اليد ، فلا تستطيع القول بأنه أراد باليد كذا كما
 قلت في القسم الأول : أراد بالأسد الرجل الشجاع « بل ليس أكثر من أن تخيل
 إلى نفسك أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدير المصرف لما زمامه
 بيده ، ومقاداته في كفه ، وذلك كله لا يتعدى التخیل والوهم والتقدير في النفس من
 غير أن يكون هناك شيء يُحسن وذات تتحصل »^(٢) .

فالاستعارة تفهم من تخيل الريح شخصاً له إرادة يدير بها الأمور ويصرفها في
 تمكن واقتدار فيأتي بالقر والبرد ، كتمكن الماسك لزمام الناقة من تسييرها
 وتوجيهها .

وقد ذكر الإمام هذا التقسيم في الدلائل موضحاً خلط الناس بين القسمين
 فقال : « فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه
 وتظهره ، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيّره المشبه وتجريه عليه ، تريد أن تقول :
 « رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء » فتدع ذلك وتقول :
 « رأيت أسداً » وضرب آخر من الاستعارة ، وهو ما كان نحو قوله :

(١) نفس المرجع ص ٤٢ ، ٤٣ . (٢) نفس المرجع ص ٤٤ .

(*) البيت لأبي عقيل لبید بن ربيعة يقول فيه :

ورب غداة ربح قد كشفت الجوع بالقرى والقرة البرد ، إذ أصبح زمام الريح أو البرد
 - بحسب عودة الضمير - في الغداة بيد الشمال . وهو يصف شدة البرد والجوع وكرمه .

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها .

هذا الضرب وإن كان الناس يضمّونه إلى الأول حيث يذكرون الاستعارة ، فليسا سواء . ذاك أنك في الأول تجعل الشيء الشيء ليس به ، وفي الثاني للشيء الشيء ليس له «^(١)» ، ثم يتابع حديثه للتوضيح قائلاً : « تفسير هذا : أنك إذا قلت « رأيت أسداً » فقد ادّعت في إنسان أنه أسد ، وجعلته إياه ولا يكون الإنسان أسداً .

وإذا قلت : « إذ أصبحت بيد الشمال زمامها » فقد ادّعت أن للشمال يداً ، ومعلوم أنه لا يكون للريح يد «^(٢)» . ففي الأولى نستطيع أن ندّعي أن الإنسان أسد ، وفي الثانية لا يتأتى ادعاء أن للريح يداً ، وإنما ندّعي أن الريح كذي اليد من الأحياء في تصريفه للأمر ، ويزيد الأمر وضوحاً في الأسرار فيقول : « أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرّفاً كتصرف الإنسان في الشيء يقلّبه فاستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق الشبه ، وحكم الزمام في استعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال ، إذ ليس هناك مشار إليه يكون « الزمام » كناية عنه ولكنه وقى المبالغة شرطها من الطرفين فجعل على الغداة زمناً ليكون أتم في إثباتها مصرّفة كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ في تصييرها مصرّفة «^(٣)» .

هذا ، وواضح من حديث عبدالقاهر أنه يقصد بالنوع الأول - ماله مقابل - ما أطلق عليه فيما بعد : الاستعارة التصريحية ، والتي يُصرّح فيها باسم المشبه به مع حذف المشبه ، وكما هو ملحوظ أن المشبه محذوف والمشبه به مصرح به موجود وهو الأسد ، وكذلك قولنا « عنت لنا ظبيبة » أي امرأة في جمالها تشبه

(١) الدلائل ص ٦٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٧ .

(٣) الأسرار ص ٤٤ .

الظبية ، فالمشبه محذوف والمشبه به مصرح به وهو الظبية وهذا سبيل الاستعارة التصريحية .

أما النوع الثاني - مالميس له مقابل - فهو الاستعارة المكنية وفيها يحذف المشبه به ويؤتى بلازم من لوازمه ليدل عليه ، فهذه « الشمال » يشبهها ليبد بذى اليد فيحذف الإنسان (مثلاً) ويثبت اليد - التي هي من لوازمه - للشمال .

فرقان آخران بين النوعين :

وبعد تفصيله القول في القسمين يزيد ذلك إيضاحاً وبياناً بذكر الفرق بينهما فيقول « إن الشبه في القسم الأول - الذي هو نحو « رأيت أسداً » تريد رجلاً شجاعاً - وصف موجود في الشيء (الذي استعرت اسمه وهو الأسد ، وأما قولك « إذ أصبحت بيد الشمال زمامها » فالشبه (الذي له استعرت اليد ليس بوصف في اليد ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها وتحصل له بها وهي التصرف على وجه مخصوص »^(١) .

فالشبه في القسم الأول - رأيت أسداً - وصف موجود في الأسد ، وهو الشجاعة . أما في القسم الثاني - إذ أصبحت بيد الشمال زمامها - فالشبه غير موجود في اليد باعتبار هيئتها ، ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها وتحصل له بها وهي التصرف بتمكن واقتدار كالذي يكون مُمكناً بيده زمام الناقة على وجه مخصوص .

وهناك فرق آخر يقول فيه الإمام : « ويفصل بين القسمين أنك إذا رجعت في القسم الأول إلى التشبيه الذي هو المغزى من كل استعارة تفيد وجدته يأتيك عفواً ، كقولك في « رأيت أسداً » « رأيت رجلاً كالأسد » أو « رأيت مثل الأسد »

(١) نفس المرجع ص ٤٨ ، وما بين القوسين من عمل ريتز : استدراك يقتضيه سياق الكلام .

أو « شبيهاً بالأسد » وإن رمته في القسم الثاني وجدته لا يواتيك تلك المواتاة إذ لا وجه لأن تقول « إذ أصبح شيء مثل اليد للشمال » أو « حصل شبه باليد للشمال » وإنما يترأى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه سترأ ، وتعمل تأملأ وفكرأ ، وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحد الأول كقولك « إذ أصبحت الشمال ولها في قوة تأثيرها في الغداة شبه المالك تصريف الشيء بيده ، وإجراؤه على موافقته وجذبه نحو الجهة التي تقتضيها طبيعته ، وتنحوها إرادته ، فأنت كما ترى تجد الشبه المنتزع هاهنا - إذا رجعت إلى الحقيقة ووضعت الاسم المستعار في موضعه الأصلي - لا يلقاك من المستعار نفسه بل مما يضاف إليه ، ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشمال كاليد ومشبّه باليد كما جعلت الرجل كالأسد ومشبّه بالأسد ، ولكنك أردت أن تجعل الشمال كذي اليد من الأحياء ، فأنت تجعل في هذا الضرب المستعار له - وهو نحو الشمال - ذا شيء ، وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشيء في فعل أو غيره لانفس ذلك الشيء فاعرفه ^(١) .

فتشبيه « زيد » بـ « الأسد » في الشجاعة يبدو واضحاً في النوع الأول ، أما النوع الثاني فلإن التشبيه « بقابض زمام الناقة » في القدرة والتصرف لا يكون إلا بعد تشبيه الشمال بالإنسان ، ثم وصفه بأنه مدبّر لأمر الزمام الذي بيده .

وكما هو ملحوظ أنه لما كان لابد لكل استعارة من بناء على التشبيه فقد أوضح عبدالقاهر أن التشبيه - فيما ليس له مقابل - فيما أُضيف إلى المشبه من وصف ، وأن هذا التشبيه ليس إلا متخيلاً مقدراً في النفس ، ومن هنا جعل الخطيب هذا النوع تشبيهاً مضمرأ في النفس يقول « قد يضر التشبيه في النفس ، فلا يصرح

(١) نفس المرجع ص ٤٤ ، ٤٥ .

بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه ، ويدل عليه بأن يُثَبَّتَ للمشبه أمر مختص
بالمشبه به ، من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً أُجْرِيَ عليه اسم
ذلك الأمر ^(١) .

والجدير بالذكر أن عبدالقاهر جعل الاستعارة هنا في (اليد) و (الزمام)
وأشار إلى تشبيهه لبيد للشمال ، فجاء المتأخرون وجعلوا الاستعارة في
« الشمال » استعير لها الإنسان ، وجعلوا إضافة « اليد » استعارة أخرى سمّوها
(تخييله) .

فالفرق الثاني كما هو واضح : هو إدراك الشبه بسهولة في القسم الأول كقولنا في
« رأيت أسداً » « رأيت رجلاً شبيهاً بالأسد » ، أما في القسم الثاني فلا يأتي
بتلك السهولة وإنما يجب فيه إعمال الفكر والتأمل كما سبق توضيحه ، فلم يقصد
في بيت « لبيد » تشبيه « الشمال باليد » كما شبّه « الرجل بالأسد » ولكنك
تريد تشبيه « الشمال بذِي اليد » ثم تجرى عليه أوصاف وأحوال « ذي اليد »
من تصريف الأمور .

الاستعارة في الفعل :

يقول الإمام في بيانها : « وإذ قد تقرر أمر الاسم في كون استعارته على هذين
القسمين ؛ فمن حقنا أن ننظر في الفعل هل يحتمل هذا الانقسام والذي يجب
العمل عليه أن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات شيء كما يتصور في الاسم ولكن
شأن الفعل أن يثبت المعنى الذي اشتق منه للشيء في الزمان الذي تدل صيغته
عليه ، فإذا قلت « ضرب زيد » أثبت الضرب لزيد في زمان ماض ، وإذا كان

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للإمام الخطيب القزويني . ج ٢ ص ٤٤٤ .

كذلك فإذا استعير الفعل لما ليس له في الأصل فإنه يثبت باستعارته له وصفاً هو شبيه بالمعنى الذي ذلك الفعل مشتق منه «^(١)» .

فالاسم يدل على ذات ، أما الفعل فلا ، إنما يدل الفعل على حدث وزمن ، فإذا استعملنا الفعل فيما ليس له في الأصل فإننا بذلك نثبت له المعنى الذي اشتق منه « بيان ذلك أن تقول « نطق الحال بكذا » و « أخبرتني أسارير وجهه بما في ضميره » و « كلمتني عيناه بما يحوي قلبه » ، فنجد في الحال وصفاً هو شبيه بالنطق من الإنسان ، وذلك أن الحال تدل على الأمر ويكون فيها أمارات يعرف بها الشيء .

كما أن النطق كذلك . وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وهو دلالتها بالعلامات التي تظهر فيها وفي نظرها وخواص أوصاف يحس بها على ما في القلوب من الإنكار والقبول «^(٢)» .

وعلى ذلك فإن هذه الاستعارة تنصرف إلى المصدر « فإذا قلت « نطق الحال » فقد استعرت أولاً « النطق » « للدلالة » ثم أطلقت « نطق » فالمشبه « الدلالة » والمشبه به « النطق » والجامع حصول الفائدة* ، ويرد عليه ماسبق من أن المجاز لفظ المصدر الذي هو النطق ولم يلفظ به حتى يكون هو المستعار أولاً ثم اشتق منه النطق وجوابه أنه المستعار أولاً تقديراً لتحقيقاً ثم يلزم أن يكون « نطق الفعل الملفوظ به مستعاراً من النطق المجازي »^(٣) ومن ثم يكون بيان الاستعارة على النحو التالي :

(١) الأسرار ص ٤٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) عروس الأفراح من شروح التلخيص ج ٤ ص ١١١ .

* الفائدة هي البيان الواضح .

شَبَّهَت الدلالة الواضحة بالنطق بجامع كمال الوضوح في كل ، واستعير المشبه به للمشبه ثم حذف المشبه واشتق من النطق بمعنى الدلالة « نطق » بمعنى « دل » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .
ومما يزيد القضية وضوحاً ذلك الأمر الذي تنبّه له الإمام عندما ذكر طريقة معرفة الاستعارة في الفعل ، وهو ما عُرِف بعده « ب قرينة الاستعارة » .

قرينة الاستعارة في الفعل :

والاستعارة قد تُعرف من جهة الفاعل - كما في الأمثلة السابقة - أو من جهة المفعول ، كما في قول ابن المعتز :

جمع الحق لنا في إمام قتل البخل وأحيا السماحا
فلما كان البخل والسماح مما لا يمكن أن يقع عليهما قتل وإحياء ، على الحقيقة عرفنا أن في الكلام مجازاً .

فالاستعارة إنما حصلت بسبب تعدية (قتل) و (أحيا) إلى البخل والسماح ، لأنه لا يحدث فيهما قتل وإحياء وإنما يحدث القتل والإحياء للكائن الحي ، فلو قال : قتل الأعداء ، لم تكن هناك استعارة .

وقد تكون الاستعارة من جهة المفعولين معاً ، كقول القائل^(١) :

وأقرى الهموم الطارقات حزامه إذا كثرت للطارقات الوسوس
فالقرى لا يمكن أن يتعدى إلى الهموم ، ولا أن يكون حزاماً على الحقيقة ، ومن هنا علمنا أن في الكلام مجازاً ، فالاستعارة في الفعل (أقرى) لتعديه إلى الهموم - مفعول به أول - وحزامه - مفعول به ثان .
وقد تُعرف الاستعارة من أحد المفعولين دون الآخر ، وذلك كقول القطامي :

(١) الذهلول بن كعب العنبري .

تقريبهم لهذميات نقدَ بها ما كان خاط عليهم كل زراد^(١)

فمدار قرينة الاستعارة في الفعل هنا على المفعول الثاني (فلن المفعول الثاني - وهو اللهذميات - قرينة على أن « تقريبهم » استعارة) ؛ لأن الهاء في « تقريبهم » مفعول به على الحقيقة فهو يريد « نقرى الأعداء » ، وهذا كلام واقع على حقيقته لو اقتصر عليه ، لكن الاستعارة تحدث عندما يقول نقرى الأعداء الأسيّة القاطعة ، لأنه لا يمكن أن يكون « القرى » أسنة قاطعة على الحقيقة فعلمنا أن القرى استعارة تهكمية .

فالقريّة - في كل ماسبق - صرفت الفعل عن معناه الحقيقي ونَبّهتنا إلى أن الفعل مراد به غيره . ومن الجدير بالذكر هنا أن بعض الاستعارات في الأفعال تلبس بالقسم الثاني من الاستعارة في الاسم وهي المكنية ، ففي قول الشاعر : « قتل البخل وأحيا السماحا » ، يرى بعض الباحثين أن الاستعارة في البخل والسماح على التشبيه بالأحياء وليس في الفعل^(٢) ، ولكن كما ذكر بعضهم : الفصل في القضية الخبرة بمسارب المعاني وطرقها ، فالشاعر هنا لم يقصد أن يشخص « البخل والسماح » ليصل عن طريقتهما إلى المعنى ، وإنما أراد معنى الفعلين « القتل والإحياء » فهذا هو الخصوص بالمدح في المعنى وإن كانت الاستعارة في الفعل قد أُلقت ظلاً على الاسم فبدأ أكثر حركة وحيوية .

(١) اسمه عمير بن شبيب ، والقطامي : لقب غلب عليه ، وكان نصرانياً وأسلم .

اللهذميات : القاطعات من الأسنة ، مفردها لهذم ، والتقد : القطع ، والزراد : صانع

الدروع ، يقول ساخرأ : نكرمهم بطعنات نقطع بها مايلبسونه من دروع .

(٢) انظر التصوير البياني ص ٣٠٣ ، الدكتور محمد أبو موسى .

تقسيم باعتبار الجامع والطرفين :

يجعل عبدالقاهر أساس المفاضلة بين استعارة وأخرى الجامع (وجه الشبه)
فالاستعارة تتفاوت في القوة والضعف تبعاً لاختلاف وجه الشبه ، يقول في ذلك « أنا
أريد أن أدرجها من الضعف إلى القوة وأبدأ في تنزيلها بالأدنى ثم بما يزيد في
الارتفاع لأن التقسيم إذا ارتفع في خارج من الأصل فالواجب أن يُبدأ بما كان أقل
خروجاً منه وأدنى مدى في مفارقه »^(١) .

وهي على ثلاثة أضرب :

أ - الضرب الأول : الاستعارة القريبة من الحقيقة :

وفيهما يكون الجامع موجوداً في معنى المستعار والمستعار له وداخل في حقيقتيهما
من حيث عموم الجنس « كالسرعة » مثلاً في جنس الحركة سواء كان « طيراناً أو
عدواً أو سباحاً » ، يوضح هذا الضرب قائلاً : « أن يرى معنى الكلمة المستعارة
موجوداً في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة إلا أن لذلك الجنس
خصائص ومراتب في الفضيلة والنقص والقوة والضعف ، فأنت تستعير لفظ الأفضل
لما هو دونه ، ومثاله استعارة الطيران لغير ذي الجناح إذا أردت السرعة وانقضاض
الكواكب للفرس إذا أسرع في حركته من علو والسباحة له إذا عدا عدواً كان حاله
فيه شبيهاً بحالة السباح في الماء ، ومعلوم أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو
كلها جنس واحد من حيث الحركة على الإطلاق إلا أنهم نظروا إلى خصائص
الأجسام في حركتها فأفردوا حركة كل نوع منها باسم ، ثم إنهم إذا وجدوا في
الشيء في بعض الأحوال شبيهاً من حركة غير جنسه استعاروا له العبارة من ذلك
الجنس »^(٢) .

(١) الأسرار ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٢ .

والأمثلة التي يستشهد بها الشيخ على هذا الضرب كثيرة ، منها ما قاله مضرس
ابن رعى الأسدي :

وفتيان شويت لهم شواء سريع الشي كنت به نجحاً
فطرت بمنصلي في يعملات دوامي الأيد يخبطن السريحاً^(١)
ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه
في سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها »^(٢) .
وقول الشاعرة :

لويشا طار به ذو ميعة لاحق الآطال نهد ذو خصل^(٣)
فقد استعير الطيران في هذه الأمثلة لغير ذي الجناح : الإنسان - في المثالين
الأولين - والحيوان - كما في المثال الثالث - بجامع السرعة في كل ، والسرعة
- كما هو واضح - موجودة في معنى الكلمة المستعارة « طار » وفي المستعار
له « العدو » .
ومن ذلك قول البحثري :

يتراكمون على الأسنة في الوغى كالفجر فاض على نجوم الغيب^(٤)

(١) يقول واصفاً نفسه بالجدود : أسرع بسيفي في نياق مطبوعة على العمل قد دميت
أيديهم من محاولة قطع السيور .

(٢) الهيعة : الصوت الذي يُنزع منه .

(٣) لامرأة من بني الحارث ، الميعة : الجرية السهلة ، وميعة الفرس : أول جريه . لاحق :
ضامر الآطال : جمع إطل وهو الخاصرة . نهد : جسيم مشرف ، وقيل : كثير اللحم
حسن الجسم مع ارتفاع . الخصلة : الشعر المجتمع .

(٤) وصفهم بالشجاعة فقال : يجتمعون على أسنة الرماح الالامعة فيغطي شعاع دروعهم لمعان
الأسنة كما يغطي ضوء الفجر النجوم .

استعير « الفيضان » - وهو موضوع لفارقة الماء مكانه دفعة - وانبطاه -
للفجر بجامع الانبساط في كل ، والانبساط موجود في معنى الكلمة المستعارة
« فاض » وفي المستعار له « الظهور » .

ومن ذلك قول أبي تمام :

وقد نثرتهم روعة ثم أحدقوا به مثلما ألفت عقداً منظماً

وقول المتنبي :

نثرتهم فوق الأحياء نثرة كما نثرت فوق العروس الدراهم
الجامع هو التفرق ، وهو موجود في المستعار « النثر » وفي المستعار له « تساقط
المنهزمين على غير ترتيب ونظام » .

وإذا كان « النظم » في الأصل لما يجمع في السلوك من الحبوب والأجسام
الصغار ، فإن قول الشاعر :

قالوا أينظم فارسيين بطعنة يوم الهياج ولا تراه كليلاً
من قبيل الاستعارة القرية لأن جمع فارسيين في سنان واحد من جنس جمع
الأجسام الصغار في السلوك .

ومن هذا الضرب قول البحري :

وفي يدك السيف الذي امتنعت به صفاة الهدى من أن ترق فتخرقاً^(١)
ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾^(٢) إذ إن التمزيق في أصل اللغة

(١) الشاهد في الفعل « تخرق » ، إذ شبه الدواعي التي تعترض الهدى فتحدث فيه أمراً
تففسده بحال رقة الصفاة ومن ثم خرقتها ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

أو : شبه الهدى بشيء محسوس وحذف المشبه به وجاء بلازم من لوازمه وهو الرقة
والخرق على سبيل الاستعارة المكنية . الشيخ يجعل الأمر هنا بين الخرق والصدع ،
وأصل الخرق في الثوب ، وأصل الصدع في الصفاة ، فالخرق والصدع من واحد .

(٢) سورة سبأ ، آية ١٩ .

للثوب وقد استعير هنا لجماعة الناس بجامع التفريق في كل . وهي استعارة قريبة من الحقيقة لأن تمزيق الثوب كما نعلم : تفريق بعضه عن بعض .

وكذا « القطع » يكون لازالة الاتصال من الأجسام التي تلتزق أجزاؤها وإذا استعمل في تفريق الجماعة فإنه يكون من قبيل الاستعارة كما في قوله تعالى : ﴿ وَصَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَّا ﴾^(١) .

ومن هذا قول القطامي :

لم تلق قوماً هم شر لإخوتهم مّا عشية يجري بالدم الوادي
نقربهم لهذميات نقد بها ما كان خاط عليهم كل زراد

يقول الإمام : لأن الخياطة تضم خرق القميص ، والزرد يضم حلق الدرع ، أفلا تراه بين أن جنسهما واحد وأن كلاً منهما ضم ووصل وإنما يقع الفرق من حيث إن الخياطة ضم أطراف الخرق بخيط يسلك فيها على الوجه المعلوم والزرد ضم حلق الدرع بمداخلة توجد بينها إلا أن الشكال الذي يلزم أحد طرفي الحلقة الآخر بدخوله في ثقبتيهما في صورة الخيط الذي يذهب في منافذ الإبرة »^(٢) .

ويرى الإمام إمكان خلط البعض بين هذا الضرب والقسم اللفظي - غير المفيد - فيرى أنه لافرق بين استعارة الطيران للفرس واستعارة « الشفة للفرس » كأنهما نوع واحد ، حيث إن « الطيران » يتميز بوصف خاص غير موجود في « عدا وجرى » فكذلك « الشفة » تتميز بوصف خاص لا يوجد في « الجحفة » ، فيحاول كعادته إزالة هذا الخلط فيوضح الفرق بين هذين الضربين ، وذلك أن العبرة هي في وجود الشبه بين المستعار منه والمستعار له ، فاستعارة « طار » له « الفرس » يقصد بها تشبيه الفرس بالطائر في السرعة ، أي إننا لاقول : « طار الفرس » إلا في حالة خاصة ، تلك الحالة التي نريد منها التشبيه بين الطرفين ، أما استعارة

(١) سورة الأعراف ، آية <١٦٨> . (٢) الأسرار ص ٥٧ ، ٥٨ .

اسم العضو - كاستعارة العجاج السابقة الذكر - فلم يُقصد فيها التشبيه ، إذ إنه من غير المعقول أن يمدح فيشبه أنف المرأة بأنف الحيوان ، لأن هذا العضو من غير الإنسان لا يوصف بالجمال كما يكون ذلك في العين والجيد^(١) .

ب - الضرب الثاني :

هو « أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة هي موجودة في كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة وذلك قولك : « رأيت شمساً » تريد إنساناً يتهلل وجهه كالشمس ، فهذا له شبه باستعارة « طار » لغير ذي الجناح ، وذلك أن الشبه مراعى في التألؤ وهو كما نعلم موجود في نفس الإنسان المتهلل لأن رونق الوجه الحسن من حيث حسن البصر مجانس لضوء الأجسام النيرة^(٢) .

فالصفة في هذا الضرب تكون موجودة أيضاً في كل من المستعار له والمستعار منه إلا أن الفرق بين هذا الضرب والضرب الأول : أن الصفة في الثاني توجد في جنسين مختلفين ، فالشمس ليس من جنس الوجه ، أما الطيران وجري الفرس فهما من جنس واحد وهو الحركة السريعة وكذلك إذا قلت « رأيت أسداً » تريد رجلاً ، فالصفة المشتركة بينهما هي « الشجاعة » وهي موجودة في الإنسان والحيوان على الحقيقة والفرق يأتي من جهة القوة والضعف والزيادة والنقصان ، فالصفة هنا موجودة بين جنسين مختلفين : الإنسان ، الحيوان .

ج - الضرب الثالث :

هو « الصميم الخالص من الاستعارة . وحده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور

(١) انظر أسرار البلاغة من ص ٥٥ - ٦٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٨ .

العقلية وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيله للشك النافية للريب كما جاء في التنزيل من نحو قوله عز وجل : ﴿ وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾^(١) ، وكاستعارة الصراط للدين في قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(٢) ، و ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٣) «^(٤)» .

فالشبه هنا عقلي مأخوذ من أمور عقلية ، والفرق واضح بين هذا الضرب والضربين السابقين - ذلك أن ما بين طيران الطائر وجري الفرس اشتراك في عموم الجنس وهي الحركة ، وأن ما بين الرجل والأسد اشتراك في طبيعة معلومة وهي الشجاعة ولا يوجد شيء من ذلك في استعارة « النور للبيان » ، فالشبه هنا لا تحصل منه على جنس ولا على طبيعة وغريزة ، مما يشهد لذلك - مثلاً - أن القلب إذا وردت عليه الحجة صار في حالة شبيهة بحال البصر إذا صادف النور ووجهت طلائعه نحوه ، وجال في معارفه وانتشر أو أثبت في المسافة التي يسافر طرف الإنسان فيها «^(٥)» .

وهذا الضرب هو أعلى درجات الاستعارة وهو « المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها »^(٦) .

ثم قسم الضرب الأخير ثلاثة أقسام سماها أصولاً :

(١) سورة الأعراف ، من الآية <١٥٧> .

(٢) سورة الفاتحة ، آية <٦> .

(٣) سورة الشورى ، آية <٥٢> .

(٤) الأسرار ص ٦٠ .

(٥) نفس المرجع ص ٦٠ بتصرف يسير .

(٦) نفس المرجع ص ٦٠ .

الأصل الأول : استعارة محسوس لمعقول :

وفيه يؤخذ الشبه من الأشياء المدركة بالحواس للمعاني المعقولة . وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة ، فالنور مشاهد بالبصر وقد استعير للبيان والحجة وهما مما يتوصل إليهما عن طريق العقل ، ومنه أيضاً استعارة « النور للعلم والإيمان » ، و استعارة « الظلمة للشبهة والجهل والكفر » ، واستعارة « القسطاس للعدل » وغيرها من الاستعارات .

الأصل الثاني : استعارة المحسوس للمحسوس والشبه عقلي :

وفيه يؤخذ الشبه من الأشياء المدركة بالحواس للأشياء المدركة بالحواس أيضاً مع كون وجه الشبه عقلياً . وذلك كما في الأثر : « إياكم وخضراء الدمن » فالمشبه : المرأة الحسناء في المنبت السوء ، والمشبه به : النابتة على الدمنة ، وكلاهما محسوس ، أما وجه الشبه فهو أمر عقلي وهو : حُسن الظاهر وفساد الباطن .

وكعادة الإمام في الشرح والتفصيل ينبّه إلى وجود فرق بين استعارة حسي لحسي والجامع أيضاً حسي واستعارة حسي لحسي والجامع عقلي حتى لا يلتبس الأمر على البعض .

مثال ذلك أننا حين نقول : « نجوم الهدى » ونقصد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالواجب في وجه الشبه هنا أن يكون عقلياً وهو الاهتداء ، إذ إن الراجع إلى علوم وآثار وأفعال الصحابة -رضوان الله عليهم - ينال النجاة من الضلال ، شأنه في ذلك شأن المهتدي بالنجوم في ظلام الليل . هذا في استعارة النجوم للناس ، أما استعارة النجوم للمصاييح فلا يكون منه ، لأن وجه الشبه في هذا - استعارة النجوم للمصاييح - يكون من حيث الحس والمشاهدة وهو الضوء واللمعان لا الهداية والاسترشاد ، فالتشبيه بالنجوم قد يكون حسياً وقد يكون

عقلياً ، أما مالا يكون الشبه فيه إلا عقلياً فذلك في مثل قولنا : « ملح الأنعام » ونحن نقصد الصحابة - رضوان الله عليهم - إذ لا سبيل هنا لوجه الشبه إلا أن يكون من طريق الصورة العقلية وهو أن صلاح الناس بالصحابة كصلاح الطعام بالملح .

الأصل الثالث : أخذ الشبه من المعقول للمعقول :

ابتدأ الشيخ هذا الموضوع باستعارة الوجود للعدم والعدم للوجود ، ثم ذكر أن غير هذا يأتي على طريقتين :

الطريق الأول :

أن يكون موضوع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة مع وجودها لخلوها من ثمرتها كتشبيه الوجود بالعدم نحو تشبيه « الجاهل بالميت » ، وذلك عندما تختفي المعاني التي تظهر قدراً للشيء وتجعل له ذكراً ، يكون وجود هذا الشيء كلا وجود . وخرج من هذا أن يكون المستحق لصفة الحياة هو العالم المتيقظ ، ولما كان أشرف العلوم هو « التوحيد » جعل من حصل له العلم كالحي ومن فقده كالميت ، وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَاحْيَيْنَاهُ ﴾^(١) .

والعلم والقدرة من لوازم الحياة ومضادة للموت ولذلك صار إطلاق الحياة مرة عبارة عن العلم وأخرى عن القدرة ، وإطلاق الموت إشارة إلى عدم القدرة وضعفها تارة وإلى عدم العلم وضعفه أخرى .

ثم يستطرد عبد القاهر هنا إلى أمور خارجة عن الاستعارة وهي كراهيته للمبالغة في تنزيل الوجود منزلة العدم مما يصل إلى ضرب من التهوس بطلبهم منزلة بعد العدم ، كقول أبي تمام :

(١) سورة الأنعام ، آية < ١٢٢ > .

أفيّ تنظم قول الزّور والفند وأنت أنزر من لاشيء في العدد
وقول ابن نباته :

مازلت أعطف أيامي فتمنحني نبلاً أدق من المعدوم في العدم
والعكس يكون في إثبات الفضيلة للمذكور بإثبات اسم الشيء له وهو على وجهين :

١ - المدح على المبالغة نحو : هذا هو الشيء وماعده فليس بشيء .

٢ - المدح على التوسط نحو « هذا شيء » أي يعتد به .

وفي هذه الطريقة تفاوت :

١ - تريد نفي القيمة عن الشيء ، فتقول « هذا إما لا ، شيء » أي لا يعتد به أبداً .

٢ - تريد إثبات القيمة فتقول « هذا شيء » أي شيء له قدر .

٣ - تريد المبالغة في التفضيل فتقول « هذا هو الشعر فحسب » أي حقيقة الجنسية مقصورة على المذكور .

أما عدم الاعتداد بالصفة فهو إما أن يأتي مطلقاً كقولنا على من لم يستفد من سمعه وبصره « هو أعمى أصم » ، أو مقيداً كقول الشاعر :

أصم عمّا ساء سميع .

جعله أصم في شيء دون شيء .

الطريق الثاني :

أن تعتبر صفة معقولة يتصور وجودها مع ضد ما استعرت اسمه . كوجود الكراهية مع الحياة التي هي ضد الموت ، فيقال : « لقي الموت » يريدون : لقي الأمر الأشد الصعب الذي هو في كراهة النفس له كالموت .

ثم ذكر الشيخ أن كل الناس يكرهون الموت - وهم أحياء - أما العارفون

فلتوقعهم ماسيلقونه من النعيم في الآخرة خفت عندهم كراهية الموت ، وضرب مثلاً بالدواء المرّ ، تهون مرارته لعلم الشارب بما يعقبه من الصحة .

ثم رجع إلى أصل المسألة الأولى :

استعارة الموت للجهل ، وقال : إن للجهل ضدّاً وهو العلم ، والعلم ملازم للحياة ، فالتعبير عن الجاهل بالميت يُلاحظ فيه الحقيقة ، لأنّ الذي لا يعلم شيئاً ميت على الحقيقة ، لما كان العلم والحياة متلازمين .

ثم ذكر استعارة « الموت للسؤال » ، ونظر إلى استعارة الموت للجهل وقال إن هذا من قبيل استعارة الموت للشيء الشديد للكراهية لأنه ليس للسؤال ضد ينافي الموت . مثاله قول الشاعر :

لاتحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

وأما استعارة « الموت للخامل » فهو داخل في تنزيل الوجود منزلة العدم ولكن ليس دخوله فيه كدخول استعارة « الميت للجاهل » وذلك أن وجود العلم يستلزم وجود الحياة ، في حين أن الذكر قد يوجد ولا توجد الحياة ، وكذلك الجهل مطلقاً يقتضي الموت ، في حين أن خمول الذكر لا يوجبّه ، فهو - أي قولنا خامل الذكر كالميت - أقرب إلى التخييل من جعل الجاهل ميتاً لأنه أقرب إلى الحقيقة .

ثم ذكر أن رأي من قال إنه على الحقيقة مقبول لأن المراد ليس أخذ شبه من شيء لشيء كأخذ الشجاعة من الأسد والنور للحجة وإنما هو تنزيل شيء منزلة شيء ، إن من قال هذا لم يعارضه وإنما تتبع الإمام ظاهر الحال في قولهم « موجود كالمعدوم » و « شيء كلاشيء » فلن أبى القارىء الأخذ بهذا الظاهر فعليه أن يعلم القاعدة في هذا الأصل الثالث وهو أن تشبيه المعقول بالمعقول إما أن يكون تنزيل الوجود منزلة العدم ، أو أن يكون لأحد المعنيين شبه من الآخر في صفة لاتنافي اللفظ المستعار منه .

الفصل الرابع

**قيمتها الجمالية والبلاغية
وأسباب حسنها**

لاشك أنه قد لوحظ اهتمام عبدالقاهر بالحديث عن الاستعارة حديثاً مفصلاً لم يسبقه إليه أحد من علماء البلاغة فتناولها بالتعريف وبين أقسامها ومكانها بين التشبيه والتمثيل ، لم يكن ذلك كله إلا لعلمه اليقين بأهميتها ومدى تأثيرها في النظم فهي مع التشبيه والتمثيل « أصول كبيرة كان جل محاسن الكلام - إن لم نقل كلها - متفرعة عنها ، وراجعة إليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها ، وأقطار تحيط بها من جهاتها »^(١) فهي من الأساليب التي تزيد الكلام حسناً إذا وقعت موقعها وأصاب غرضها . يقول في ذلك : « فانظر إلى الأشعار التي أثروا عليها من جهة الألفاظ ، ووصفوها بالسلاسة ، ونسبوها إلى الدمائية . . . كقوله :

ولما قضينا من منى كل حاجة	ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهاري رحالنا	ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا	وسالت بأعناق المطي الأباطح

ثم راجع فكرتك واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ودع عنك التجوز في الرأي ثم انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم ، منصرفاً إلا إلى استعارة وقعت موقعها ، وأصاب غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع »^(٢) فالحكم باستحسان هذه الأشعار

(١) الأسرار ص ٢٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٢١ ٢٢ .

والثناء عليها لم يكن إلا لوجود استعارة وقعت موقعها أو حسن ترتيب وتنظيم حتى وصل المعنى المراد كاملاً^(١) .

ويرى عبدالقاهر أن من الأمور التي تدعو للاهتمام بالشعر : الاستعارة ، فيقول رداً على من ذم الشعر : « فلن زعم أنه إنما كره الوزن ، لأنه سبب لأن يتغنى في الشعر ويتلهى به ، فإننا إذا كنا لم ندعه إلى الشعر من أجل ذلك ، وإنما دعوانه إلى اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والمنطق الحسن والكلام البين ، وإلى حسن التمثيل والاستعارة ، وإلى التلويح والإشارة . . »^(٢) .

لقد أعلی عبدالقاهر من شأنها على بقية ألوان البديع وبين قيمتها وفضلها وماتحدثه في الكلام من جمال ، فهي « أمد ميداناً ، وأشد اقتنائاً ، وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعةً وأبعد غوراً ، وأذهب نجداً ، نعم وأسحر سحراً ، وأملأ بكل مايملاً صدرأ ، ويمتع عقلاً ، ويؤنس نفساً ويوفر أنساً ، وأهدى إلى أن تهدى إليك أبدأ عذارى قد تُخَيِّر لها الجمال ، وعُني بها الكمال ، وأن تُخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت في الشرف والفضيلة باعاً لا يقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر ، وردت تلك بصفرة الخجل ، ووكلتها إلى نسبتها من الحجر ، وأن تثير من معدنها تبرأ لم تر مثله ، ثم تصوغ فيها صباغات تعطل الحلى ، وتريك الحلي الحقيقي ، وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس إليها الدين والدنيا ، وفضائل لها من الشرف المرتبة العليا ، وهي أجل من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها ، وتستوفي جملة جمالها »^(٣) .

(١) ذكر الشيخ أسراراً أخرى لبلاغة هذه الأبيات ، وقد اكتفيت بالحديث عن الاستعارة لأنها مدار بحثي .

(٢) الدلائل ص ٢٤ . (٣) الأسرار ص ٤٠ ، ٤١ .

كل ذلك إبراز وبيان لقيمة وفضل الاستعارة ، ثم يوضح مكانتها في الكلام البليغ قائلاً : « وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة ، ومعها يستحق وصف البراعة ، وجدها تفتقر إلى أن تعبرها حلاها ، وتقتصر عن أن تتازعها مداها ، وصادفتها نجوماً هي بدرها ، وروضاً هي زهرها ، وعرائس مالم تعبرها حليها فهي عواطل وكواعب مالم تحسنها فليس لها في الحسن حظ كامل »^(١) .

ولا يغيب عن الشيخ بيان فضائلها فهي « تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً وتوجب له بعد الفضل فضلاً ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد . . . ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنّي من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر . . . فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جليلة ، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدها ولا ناصر أعز منها ولا رونق لها مالم تزنها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة مالم تكنها ، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطّفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لاتتالها إلا الظنون . . . »^(٢) .

ومن حديث عبدالقاهر عن قيمة الاستعارة وفضائلها تنضح لنا طائفة من الألوان البلاغية مثل :

(١) نفس المرجع ص ٤١ .

(٢) نفس المرجع ص ٤١ .

١ - الإيجاز : وذلك في قوله : « أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ » .

٢ - التشخيص : وذلك في قوله : « فإنك لترى بها الجماد حيّاً ناطقاً » .

٣ - التجسيم : وذلك في قوله : « إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها جسمت حتى رأتها العيون » .

٤ - تزيين الكلام : وهذه الفائدة تتضح من خلال وصفه للاستعارة حيث يقول : « هي أمد ميداناً وأشد افتناناً وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعةً . . . »^(١) .

٥ - الجِدَّة : وذلك في قوله : « ومن الفضيلة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة ، تزيد قدره نبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً » .

٦ - إمكان استعمال اللفظة الواحدة لمعاني كثيرة : وذلك في قوله : « وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد »^(٢) .

وحديث عبدالقاهر عن قيمة الاستعارة وفوائدها ليس إلا إشارات قليلة إلى جمالها لأن هذا الفضل وذلك الحسن لا يظهران إلا بالتوضيح والتفصيل وبيان الأسباب ، لذلك فهو يرى أهمية كبيرة لمعرفة تلك الأسباب ، يقول : « فنحن وإن كنا نعلم أنك إذا قلت : « هو طويل النجاد » ، « وهو جم الرماد » ، كان أبهى لمعناك ، وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد ، وكذا إذا قلت : « رأيت أسداً » كان لكلامك مزية لا تكون إذا قلت : « رأيت رجلاً هو والأسد سواء » ، في معنى الشجاعة وفي قوة القلب وشدة البطش وأشباه ذلك . . . فإنما تسكن

(١) نفس المرجع ص ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٤١ .

أنفسنا تمام السكون ، إذا عرفنا السبب في ذلك والعللة ، ولم كان كذلك ، وهياناً
عبارة تفهم عنا من نريد إفهامه «^(١)» .

أما أسباب حسن الاستعارة فهي :

١ - تأكيد الصفة وثبوتها :

فلذا ما قارنا بين قولنا في الاستعارة « رأيت أسداً » وقولنا في التشبيه « رأيت
رجلاً كالأسد » فإننا نجد صفة الشجاعة في قولنا « رأيت أسداً » أثبت
وأكد فنحن بهذا الأسلوب ندّعي أننا رأينا أسداً على الحقيقة ، لذلك فإن
صفة الشجاعة لا بد أن توجد في هذا الأسد ، لأنه من المستحيل أن يكون
أسداً ويعرى من هذه الصفة ، أما قولنا « رأيت رجلاً كالأسد » فالمشاهد
رجل يشبه الأسد فكونه رجلاً يجعل صفة الشجاعة مترجمة بين الوجود
وعدم الوجود «^(٢)» ، لذلك كان أسلوب الاستعارة أقوى من الحقيقة ومن
التشبيه الصريح .

٢ - وقوع الاستعارة موقعها المناسب :

دليل ذلك أننا نجد اللفظة تُستعار مرات عديدة ، لكن تتفاوت درجات
حسنها ، وإنما يرجع ذلك إلى درجة وقوعها موقعها المناسب ، مثال ذلك
لفظة « الجسر » في قول أبي تمام :

لا يطمع المرء أن يجتاب لجّته بالقول مالم يكن جسراً له العمل

وقوله :

بصرت بالراحة العظمى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

فترى لها في الثاني حسناً لاتراه في الأول ، ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرقيّ

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٠ .

(٢) انظر الدلائل ص ٧٣ .

قولي نعم ، ونعم إن قلت واجبة قالت عسى ، وعسى جسر إلى نعم
فترى لها لطفاً وخلاصةً وحسنًا ليس الفضل فيه بقليل «^(١) .

ومانلاحظه هنا هو أن عبدالقاهر قد خلط بين الاستعارة والتشبيه
المحذوف الأداة ، فالمعنى في بيت أبي تمام على تشبيه العمل بالجسر ،
فالعمل اسم لكان والجسر خبرها ، وكذلك قول ربيعة الرقي على تشبيه
عسى بالجسر فهذا الكلام تشبيه ولكن لعل عبدالقاهر وضعه في باب
الاستعارة انطلاقاً من بعض رأيه في التشبيه البليغ ، فهو يرى - كما
سنعرف - أن المشبه به إذا كان نكرة خرج عن أن يحسن إدخال كل حروف
التشبيه عليه ، فلو أردت أن تقول في مثل قولك « هو بحر » بأنه استعارة
« كنت أعذر وأشبه بأن تكون على جانب من القياس ومتشبهًا بطرف من
الصواب »^(٢) .

٣ - إخفاء التشبيه :

كلما كان التشبيه أكثر إخفاءً ازداد حسن الاستعارة ، مثال ذلك قول ابن
المعتز :

أثمرت أغصان راحته لجناة الحسن عنايا

فلإذا أردنا إظهار التشبيه في مثل هذا البيت ، احتجنا إلى زيادة في الشرح
وتغيير في النظم فنقول كما قال عبدالقاهر : « أثمرت أصابع يده التي هي
كالأغصان لطالبي الحسن ، شبيه العناب من أطرافها المخضوبة »^(٣) والذي لا
نشك فيه هو الفرق الكبير بين الصياغتين في الأسلوب ، فقول ابن المعتز فيه

(١) نفس المرجع ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الأسرار ص ٣٠٤ .

(٣) ١١ لائل ص ٤٥١ .

مافيه من الإيجاز الذي ترتاح له النفوس ، كما أن عدم التصريح بالتشبيه أدى إلى جمال في إخراج الصورة ، فماهو موجود في راحة الممدوح أغصان وليس أصابع والأغصان من طبيعتها الإثمار فهي أقوى على التصوير وأداء المعنى . وكان الثمر هو العناب ، فالعدول عن التشبيه إلى الاستعارة وإخفاء التشبيه بهذه الصورة أحدث ما أحدث من جمال في الصياغة والمعنى . ويتضح فضل إخفاء التشبيه جلياً إذا ما نظرنا إلى كلمة « العناب » نفسها في بيت آخر .

فأسبلت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً ، وعضت على العناب بالبرد
فلو أردنا إظهار التشبيه هنا لجاء ذلك سهلاً لا قبح فيه ولا غثاثة كتلك التي وجدت في المثال السابق فنقول : « وعضت على أطراف أصابع كالعناب بثغر كالبرد »^(١) وهذا - كما يقول الشيخ - « شيء يتكلم بمثله وإن كان مردولاً »^(٢) .

وكلمة « العناب » في هذين البيتين تدل على أن الاستعارة تحسن إذا وقعت موقعها وأصاب غرضها .

٤ - الجمع بين عدة استعارات :

تبلغ الاستعارة غاية شرفها وفخامتها إذا جمع الشاعر بين عدة استعارات في بيت واحد قاصداً إظهار الصورة متكاملة شكلاً ومعنى .
مثال ذلك قول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبهِ
وأردف أعجازاً وناء بكلكل

(١) نفس المرجع ص ٤٥٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٥٦ .

يقول بأن ليله كموج البحر في كثافة ظلمته وقد أرخى عليه أستاره بأنواع
 الهموم ليرى ما عنده من الصبر والجزع ، وقد أراد الشاعر أن يبين المدة التي
 قضاها على هذه الحالة فوصف ليله بالطول وذلك عن طريق الاستعارة فجعل
 لليل صلباً وقد تمطى به ثم ثنى ذلك فجعل له أعجازاً قد أردف بها الصلب ،
 وثلاث فجعل له كلكلاً قد ناء به ، فاستوفى له جملة أركان الشخص ، ورأى
 ما يراه الناظر في سواده ، إذا نظر قدامه ، وإذا نظر إلى خلفه ، وإذا رفع
 بصره ومدّه في عرض الجو^(١) .

وعبدالقاهر في هذا يتفق مع الآمدي في الحكم بأن هذا البيت من الاستعارات
 التي بلغت غايتها في الحسن والجودة . ويختلف مع قدامة بن جعفر ، إذ إن
 قدامة يعد هذا البيت من المعازلة ، يقول : « وقد استعمل كثير الشعراء
 الفحول المجيدين أشياء من الاستعارة ليس فيها شناعة كهذه وفيها لهم
 معاذير إذ كان مخرجها مخرج التشبيه . فمن ذلك قول امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

فكانه أراد أن هذا الليل في تطاوله كالذي يتمطى بصلبه لا أن له صلباً ،
 وهذا مخرج لفظه إذا تؤمل^(٢) . ويعلق محقق الكتاب - الدكتور خفاجي -
 على ذلك قائلاً : « يعيب قدامة هذا البيت ، وهو في عرف جميع النقاد من
 أروع الصور الشعرية^(٣) . وقول الدكتور خفاجي : « وهو في عرف جميع
 النقاد . . » تعميم مبالغ فيه ، فابن سنان يجعل من البعيد المطرح ما كانت
 الاستعارة فيه مبنية على استعارة - هذا عند حديثه عن ضرب الاستعارة -

(١) انظر الدلائل ص ٧٩ .

(٢) نقد الشعر ص ١٧٥ .

(٣) نفس المرجع ص ١٧٥ .

أما عند ذكره لهذا البيت فيوضح أنه ليس من جيدها ولا رديتها بل هو من الوسط^(١) .

٥ - جمال النظم :

وعلى الرغم من أن عبدالقاهر يرجع الفصاحة إلى الاستعارة ، فهو يؤكد على أن جمال الاستعارة يرجع إلى النظم ، فإذا حسنت الصياغة اكتمل حسن الاستعارة لأنها بذلك تكون قد وقعت موقعها وأصاب غرضها ، ويخطئ من ينسب المزية إلى اللفظ ، يقول : « واعلم أن هذا - أعني الفرق بين أن تكون المزية في اللفظ ، وبين أن تكون في النظم - باب يكثر فيه الغلط ، فلا تزال ترى مستحسناً قد أخطأ بالاستحسان موضعه ، فينحل اللفظ ما ليس له ، ولا تزال ترى الشبهة قد دخلت عليك في الكلام قد حسن من لفظه ونظمه ، فظننت أن حسنه ذلك كله للفظ منه دون النظم »^(٢) .

ويثبت هذه الفكرة بأمثلة عديدة كقول سبيع بن الخطيم التيمي :

سالت عليه شعاب الحيّ حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

« فإنك ترى هذه الاستعارة ، على لطفها وغرابتها ، إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى ، بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها . وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف ، فأزل كلاً منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه ، فقل « سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره » ثم انظر كيف يكون الحال ، وكيف يذهب الحسن والحلاوة ؟ وكيف تعدم أريحيتك التي كانت ؟ وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها ؟ »^(٣) .

(١) سر الفصاحة ص ١١٠ - ١١٢ .

(٢) الدلائل ص ٩٨ . (٣) نفس المرجع ص ٩٩ .

فسبب حسن الاستعارة هنا لم يكن لأنها وقعت موقعها المناسب في النظم فحسب بل لأنه أيضاً قد قدم الجار والمجرور « عليه » ليفيدنا تأكيد تدفق أهل الحي وعظيم مكانته عندهم ، وكلمة الشعاب تدل على الكثرة ، فكل من وُجد في الحي بجميع شعابه قد أقبل على الممدوح مسرعاً طلق المحيا تأكيداً للمكانة العالية التي يحظى بها الممدوح ، فهو مطاع في الحي ، وأنهم يسرعون إلى نصرته ، وأنه لا يدعوهـم لحرب أو نازل خطب إلا أتوه وكثروا عليه ، وازدحموا حواليه حتى تجدهم كالسيول تجريء من ههنا وههنا ، وتتصب من هذا المسيل وذلك ، وحتى يغص بها الوادي ويطفح منها^(١) .

٦ - أن ينضم إلى الاستعارة تجوز آخر :

كقول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح
» أراد أنها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة ، وكانت سرعة في لين وسلاسة حتى كأنها سيول وقعت في تلك الأباطح فجرت بها «^(٢) .

وقد عرض هذه الأبيات في الأسرار فشرحها شرحاً مفصلاً مبيناً موضع الاستعارة وفضلها وأهمية النظم ودوره في الأبيات ، فالشاعر يعبر عن قضاء مناسك الحج كاملة من أركان وفروض وسنن إلى طواف الوداع الذي يعطي رخصة المسير فتزم الركاب ويركب الركبان ، ومن ثم يكون تبادل الأحاديث الطريفة التي تخبر عن خبايا نفوس طيبة قد أدت مناسك الحج ورجت حسن

(١) نفس المرجع ص ٧٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٤ .

الإياب ، ثم يقول الإمام : « . . . ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه ، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه . فصرح أولاً بما أوماً إليه في الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفي حال التوجه إلى المنازل ، وأخبر بعد بسرعة السير ، ووطاء الظهر ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح وكان في ذلك ما يؤكد ما قبله لأن الظهور إذا كانت وطيفة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلك في نشاط الركبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً . ثم قال « بأعناق المطي » ولم يقل « بالمطي » لأن السرعة والبطء يظهران غالباً في أعناقها ، ويبين أمرهما من هوائيهما وصدورها ، وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة ، وتتبعها في الثقل والخفة ، ويعبر عن المرح والنشاط إذا كانا في أنفسهما بأفاعيل لها خاصة في العنق والرأس ويدل عليها بشمائل مخضومة في المقادير . . . »^(١) .

وبعد هذا الشرح المفصل يسأل عبدالقاهر سؤالاً تقريرياً مؤكداً على صحة فكرته ، فيقول : « فقل الآن هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها حتى إن فضل تلك الحسنة يبقى لتلك اللفظة ولو ذكرت على الانفراد وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه »^(٢) .

٧ - ومما ينبغي ألا يفوتنا ذكره أن أسباب حسن الاستعارة : الغرابة : فمن الاستعارة ما هو عامي مبتذل شاع استعماله بين العامة كقولنا : « رأيت أسداً » و « لقيت بدرأ » ، ومن الاستعارة ، ما هو خاصي نادر غريب لانجده إلا في كلام البلغاء ، والثاني هو مدار حديثنا ، فقد تحصل هذه الغرابة بتصرف في العامية ، كما في قول الشاعر :

(١) الأسرار ص ٢٣ . (٢) نفس المرجع ص ٢٣ .

وسالت بأعناق المطي الأباطح

أي إن هذه الإبل سارت سيراً سهلاً سريعاً سلساً وقد ملأت المكان حتى كأنها سيول تجري في تلك الأباطح ، وتظهر غرابة الاستعارة هنا في أن الشاعر أصبحها مجازاً عقلياً لأنه أسند السيلان للأباطح ليدل على العموم والشمول ، وأن الأباطح قد امتلأت بالمطي ، فارتقت هذه الاستعارة من القرب إلى البعد .

ومما يجدر ذكره أن النقاد والعلماء قبل عبدالقاهر اختلف نظرهم إليها :
(١) فمنهم من قصر الجمال على ألفاظها وحسن مخارجها ومطالعها ومقاطعها كابن قتيبة الذي ذكرها في ضرب من الشعر إذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى^(١) ، وتبعه في ذلك ابن طباطبا الذي اكتفى بأن زاد قائلاً : « فهو معنى مستوفى على قدر مراد الشاعر »^(٢) .

(٢) ومنهم من جعله في معانيها ولكن ذهب بها مذهباً بعيداً كابن جنى الذي ألمح إلى ما فيها من الغزل^(٣) .
أما عبدالقاهر فقد أكد على أن الفضل راجع إلى المعاني ، ومن تلك المعاني : الاستعارة .

وبالعودة إلى أسباب حسن الاستعارة نصل إلى الغرابة من الأمور التي تزيد الاستعارة حسناً وجمالاً ، ونجد عبدالقاهر يؤكد على هذه الفكرة بذكر استعارة أخرى ، جهة الغرابة فيها غير جهتها في الاستعارتين السابقتين وذلك « قول يزيد بن مسلمة بن عبد الملك يصف فرساً له ، وأنه مؤدب ،

(١) انظر الشعر والشعراء ج ١ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) انظر عيار الشعر ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٣) انظر الخصائص ج ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ .

وأنه إذا نزل عنه وألقى عنانه في قربوس سرجه ، وقف مكانه إلى أن يعود إليه :

عودته فيما أזור حباثي إهماله ، وكذاك كل مخاطر
وإذا احتبى قربوسه بعنانه علك الشكيم إلى انصراف الزائر

فالغربة ههنا في الشبه نفسه ، وفي أن استدرك أن هيئة العنان في موقعه من قربوس السرج ، كالهئية في موضع الثوب من ركبة المحتبي ^(١) ، أي عودت ذلك الفرس الإهمال والترك عند زيارة الأحبة وعند فعل كل أمر خطير مهم ، أي شبهت الهيئة الحاصلة من وقوع العنان في موضعه من قربوس السرج بالهيئة الحاصلة من وقوع الثوب في موضعه من زكيتي المحتبي ووجه الشبه هو هيئة إحاطة شيء لشئتين ضاماً أحدهما إلى الآخر على أحدهما أعلى والآخر أسفل واستعير الاحتباء وهو ضم الرجل ظهره وساقيه بثوب وشبهه لإلقاء العنان ووقوعه في قربوس السرج لأجل ضم رأس الفرس إلى جهته واشتق من الاحتباء : احتبى بمعنى وقع على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ^(٢) .

ولا تقتصر الغربة على هذه الأنواع بل قد يتناسى الشاعر الاستعارة ، فيؤدي ذلك إلى الغربة ، وتأتي الصياغة مقرونة بالتعجب أو بالنهي عنه ، ومنه قول الشاعر :

قامت تظللني من الشمس نفس أعز عليّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس

(١) الدلائل ص ٧٥ .

(٢) حاشية الدسوقي - شروح التلخيص ج ٤ ، ص ٨٧ .

« لولا أنه ادعى له معنى الشمس الحقيقي وجعله شمساً لما كان لهذا التعجب معنى ، إذ لا تعجب في أن إنساناً حسناً يظلل إنساناً آخر »^(١) .
فتعجب الشاعر هنا يدل على أنه نسي أنه استعار الشمس لهذا الإنسان الذي يظله .

وكذا قول البحري :

طلعت لهم وقت الشروق فعانوا سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق
وما عانوا شمسين قبلهما التقى ضياؤهما وفقاً من الغرب والشرق
وجه الغرابة هنا في إظهار شمسين من المشرق والمغرب في آن واحد .
وكذا قول المتنبي :

كبرت حول ديارهم لما بدت منها الشموس وليس فيها المشرق
وجه الغرابة فيه من تعجب المتنبي « من قدرة الله حين أطلع شمساً لا من المشرق ، وكانت منازل الممدوحين في جهة الغرب »^(٢) .
وقوله أيضاً :

ولم أر قبلي من مشى البدر نحوه ولا رجلاً قامت تعانقه الأسد
فالعجب هنا من « أن يمشي البدر إلى آدمي وتعانق الأسد رجلاً »^(٣) .
وهناك جهة أخرى من الغرابة وهي : عكس مذهب التعجب ، وذلك أن يثبت خاصية من خواص المشبه به للمشبه عن طريق إيهام أن التشبيه قد خرج من البين : مثاله :

لا تعجبوا من بلى غلاته قد زرّ أزواره على القمر

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص - العباسي ج ٢ ، ص ١١٤ .

(٢) شرح ديوان المتنبي - وضعه : عبدالرحمن البرقوقي ج ٣ ، ص ٧٧ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٢٨٢ .

فهو « لو لم يجعله قمرأً حقيقياً ما كان للنهي عن التعجب معنى ، لأن الكتان إنما يُسرع إليه البلى بسبب ملازمته للقمر الحقيقي ، لا بسبب ملابسة إنسان كالقمر حسناً . . . وأما التعجب والنهي عنه في البيت والذي قبله^(١) ، فللبناء على تناسي التشبيه ، قضاءً لحق المبالغة ، ودلالة على أن المشبه بحيث لا يتميز عن المشبه به أصلاً ، حتى إن كل ما يترتب على المشبه به من التعجب والنهي عنه يترتب على المشبه أيضاً^(٢) .

٨ - الترشيح :

يقوم تناسي التشبيه في الاستعارة على الترشيح ، ومن شواهد قول أبي تمام :

فما زال يقرع تلك العلاء مع النجم مرتدياً بالعماء

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء

فقد استعار الصعود - الصفة المحسوسة لعلو المكان - لعلو القدر ، ثم جاء

بصفة تؤكد « علو المكان » وهي الارتقاء إلى السماء ، وكأن هذا الصعود

قد كان على حقيقته ولم يكن من باب التشبيه . ومنه قول ابن الرومي :

يا آل نويخت لا عدمتكم ولا تبدلت بعدكم بدلا

إن صح علم النجوم كان لكم حقاً إذا ما سواكم انتحلا

كم عالم فيكم وليس بأن قاس ولكن بأن رقى فعلا

أعلاكم في السماء مجدكم فلستم تجهلون ما جهلا

شافتهم البدر بالسؤال عن الـ أمر إلى أن بلغتم زحلا

(١) البيت الذي قبله :

ياليت حظي كحظ ثوبك من جسمك يا واحدا من البشر

(٢) معاهد التنصيص - العباسي ج ٢ ص ١٢٩ .

استعار العلو في السماء لعلو قدر ممدوحيه ، ثم جاء بما يؤكد هذا العلو
والارتفاع ، وهو حديثهم مع البدر واستفسارهم عما يجهله غيرهم وذلك
لقربهم من البدر في المكان .

الفصل الخامس

الاستعارة ومقتضيات النظم
مع بيان أثرها في الدرس اللغوي

الاستعارة وخصائصها النظمية مع بيان أثرها في الدرس اللغوي

النظم لغة : التأليف ، نظم ينظمه نظاماً ونظاماً ، ونظمه فانتظم وتنظم . .
ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك ، والتنظيم مثله ، ومنه نظمت الشعر ونظمته ،
ونظم الأمر على المثل . وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض ، فقد
نظمته . والنظم : المنظوم ، وصف بالمصدر ، والنظم : ما نظمته من لؤلؤ وخرز
وغيرهما ، واحدته نظمة ، ونظم الحنظل : حبه في صيصانه «^(١) .

(**والنظم**) نظمك الخرز وغيره ، نظم ينظم نظاماً ونظاماً ونظم تنظيماً ، والنظام
كل شيء منظوم . والنظم كواكب في السماء تسمى النظم وهي من نجوم الجوزاء ،
ويقال انتظمت الصيد إذا طعنته أو رميته حتى تنفذه ، وقال بعضهم : « لا يقال :
انتظمته حتى تجمع بين رميتين بسهم أو برمح »^(٢) .

هذا هو المعنى اللغوي ، ومما لاشك فيه أن المعنى الاصطلاحي يشترك مع المعنى
اللغوي في معنى عام وهو الجمع والضم ، فإذا كان النظم في اللغة قرن الشيء
بالشيء وضم بعضه إلى بعض ، فإنه في الاصطلاح يكون : ضم الكلمات بعضها إلى
بعض للتعبير عن معنى من المعاني تعبيراً صحيحاً ، وهذا ماقرره عبدالقاهر إذ
يقول : « واعلم أن ليس « النظم » إلا « أن » * تضع كلامك الوضع الذي
يقتضيه « علم النحو » ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت
فلا تزغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها »^(٣) .

(٢) جمهرة اللغة ج ٣ ص ١٢٥ .

(١) اللسان ج ١٢ ، ص ٥٧٨ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٨١ .

* غير موجوده في الدلائل في النسخة : تحقيق محمود شاكر وموجوده في نسخ أخرى .

فالجَمع بين كلمة وأختها يجب أن يراعى فيه قوانين علم النحو : مبتدأ وخبر ، فعل وفاعل ومفعول ، حال وصفة - بما تشير إليه من معاني تختلف باختلاف مواقع هذه الكلمات - وإلا لما كان للكلام معنى ، وإن لم يكن له معنى فلا يُعد نظماً .

فعمل الناظم هو النظر في أبواب النحو ومعرفة الفروق الدقيقة بين باب وآخر « فينظر في الخبر » إلى الوجوه التي تراها في قولك : « زيد منطلق » و « زيد ينطلق » ، و « ينطلق زيد » و « منطلق زيد » ، و « زيد المنطلق » . وفي « الشرط والجزاء » إلى الوجوه التي تراها في قولك : « إن تخرج أخرج » و « إن خرجت خرجت » و « إن تخرج فأنا خارج » و « أنا خارج إن خرجت » و « أنا إن خرجت خارج » . وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك : « جاءني زيد مسرعاً » و « جاءني يسرع » . . . فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجيء به حيث ينبغي له ^(١) .

إن الأساس الذي تبنى عليه فكرة النظم عند عبدالقاهر هو توخي معاني النحو في الكلام ، فإذا ماحدث خطأ في النظم فإنما يكون راجعاً إلى معنى من معاني النحو ، والصواب كذلك . يقول عبدالقاهر : « فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً ، وخطؤه إن كان خطأً إلى « النظم » ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ، ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه ، واستعمل في غير ما ماينبغي له ، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية

(١) نفس المرجع ص ٨١ ، ٨٢ .

وذلك الفضل ، إلى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ،
ويتصل بباب من أبوابه »^(١) .

فالارتباط وثيق بين النحو والنظم ، والنظم يختلف في بلاغته من قائل لآخر وذلك
تبعاً للطريقة المتبعة في ترتيب الكلمات ، وعلى حسب ترتيب المعاني في النفس ،
فقد تحكم بالجودة لنص على آخر وإن اتفقا في المعنى .

والاستعارة والكناية والتمثيل من مقتضيات النظم عند الشيخ حيث يقول :
« فإن قيل : قولك « إلا النظم » يقتضي إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب
المجاز من جملة ما هو به معجز ، وذلك ما لا مساغ له . قيل : ليس الأمر كما
ظننت ، بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز . وذلك لأن
هذه المعاني - التي هي « الاستعارة » و « الكناية » و « التمثيل » ، وسائر
ضروب « المجاز » من بعدها - من مقتضيات « النظم » ، وعنه يحدث وبه
يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوَحَّ فيما بينها
حكم من أحكام النحو . فلا يتصور أن يكون ههنا « فعل » أو « اسم » قد
دخلته الاستعارة ، من دون أن يكون قد أُلِّفَ مع غيره . أفلا ترى أنه إن قُدِّرَ في
« اشتعل » من قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أن لا يكون « الرأس » ،
فاعلاً له ، ويكون « شيباً » منصوباً عنه على التمييز ، لم يتصور أن يكون
مستعاراً ؟ وهكذا السبيل في نظائر « الاستعارة » فاعرف ذلك »^(٢) .

فالاستعارة من مقتضيات النظم ، وليست كما قرر صاحب الصورة البلاغية
قائلاً : « إن العمد التي يقوم عليها النظم ، وبها تتم الصياغة في الجمل ، كي
تجلو الصورة الأدبية وتكشف عنها هي : الاستعارة والتشبيه والكناية والمحسنات

(١) نفس المرجع ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٩٣ .

المعنوية واللفظية الجارية مع السياق وغير النابية عنه . . . فالاستعارة مثلاً وهي من العمد الأساسية التي يقوم النظم عليها ، ويكون بها هي من صفة اللفظ في الظاهر ، ولكن المقصود بها إلى المعنى «^(١) .

فإذا نظرنا إلى الاستعارة على أنها نقل للفظ من معنى إلى معنى ، اتضح لنا أن هذا النقل ليس من بنية الكلام ، ولكن لما كان معنى هذا النقل لا يتحقق إلا إذا وضعنا اللفظ في جملة كانت صلة الاستعارة بالنظم قوية لأنها لا تتحقق بدونه فهي ليست جزءاً من الكلام باعتبار معناها ، ومحتاجة إلى الكلام ليتحقق هذا المعنى .

والنظم يمكن أن يكون دون وجود الاستعارة لأنه إسناد فعل إلى فاعل أو خبر إلى مبتدأ ، أما الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز فلا يمكن أن تتحقق إلا إذا جاءت في بناء ، فهي معان زائدة لا تدخل في البنية لكنها تضافي على الكلام حسناً وجمالاً . يقول عبدالقاهر : « وإذ قد عرفت ذلك ، فاعمد إلى ما توافوه بالحسن ، وتشاهدوا له بالفضل ، ثم جعلوه كذلك من أجل « النظم » خصوصاً ، دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر ، من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم . . . »^(٢) فهذا يعني أن النظم يحصل دون وجود الاستعارة .

ويقول في موضع آخر : « ونعود إلى النسق فنقول : « فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عدناه ، لم يبق إلا أن يكون في

(١) الصورة البلاغية عند عبدالقاهر الجرجاني منهجاً وتطبيقاً - د. أحمد دهمان : ج١

ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٢) الدلائل ص ٨٤ ، ٨٥ .

« النظم » ، لأنه ليس - من بعد ما أبطلنا أن يكون فيه - إلا « النظم » و
« الاستعارة »^(١) .

والعطف يعني أن المعطوف شيء والمعطوف عليه شيء آخر ، وعليه فإن الاستعارة
غير النظم ، فالشيء يكون من الشيء ليس هو ، لكنها من الأمور التي يطلبها
النظم ليكتمل له الجمال .

وإذا كان « جوهر النظم » عن عبدالقاهر هو : « أن تصاغ العبارة بطريقة
تفصح تماماً عما في نفس قائلها ، وتكشف عما يريد إيصاله إلى مخاطبه ، ولا يتم
ذلك إلا إذا كانت عبارته صورة للمعنى القائم في نفسه . فالمتكلم في صياغته للعبارة
إنما يقتضي أثر المعنى في نفسه ، ويرتب عبارته حسب ترتيب المعنى فيها »^(٢) .

فالنظم إذن فيه « جهد يبذله البليغ ، يتمثل في الاختيار والترتيب ، حتى تصبح
العبارة صورة لما في نفسه . ولما كان لكل إنسان شعوره المتميز بالأشياء ، وإدراكه
الخاص للمعاني ، كان تعبير كل واحد صورة لشعوره الخاص ، وإدراكه المتميز .
والفنان أدق شعوراً بالأشياء ، وأعمق إدراكاً للمعاني ، وأشد إحساساً بالخواطر
العميقة المتشعبة حول ما يسمع وما يرى ، وأقوى إدراكاً للصلات البعيدة بين
الأشياء ، ومن هنا يأتي كلامه معبراً عن ذلك كله ، وصورة صادقة له ، فكلما
قويت ملكة البليغ ، ودق حسّه ، ونما ذوقه ، كلما * أخرج لنا كلاماً له في مقام
التفضيل مكانةً ومقداراً »^(٣) . ومن الأمور التي تساعد على إخراج كلام له في مقام
التفضيل مكانةً ومقدار : المجاز . يقول صاحب دلالة الألفاظ : « وهناك

(١) نفس المرجع ص ٣٩١ . (٢) الإعجاز القرآني وجوه وأسواره - د . عبدالغني بركة ص ١٩٠ .

* لا يجوز إعادة « كلما » في الجواب لأنها ذاتها تفيد التكرار ، والصواب : فكلما قويت
ملكة . . . أخرج لنا كلاماً . . .

(٣) نفس المرجع - د . عبدالغني بركة ص ١٩٧ .

نوع آخر من « المجاز » يتميز بالطرافة ، ويصادف من جمهور الناس الإعجاب ، وينظر إليه على أنه نوع من الابتكار والاختراع ، وذلك هو ما تتفق عنه قرائح الأدباء والشعراء والصفوة من أصحاب البلاغة واللسن ، حين يعمدون إلى الألفاظ فينحرفون بها عن عمد وقصد إلى مجال آخر ، وتلك هي الصفة التي يتنافس فيها أصحاب الشعر والأدباء ، وتقاس بها مهارتهم وقدرتهم ^(١) .

فاللغة إذن تتطور ومن أسباب تطورها المجاز ، والمجاز ذو أثر كبير في نمو اللغة إذ إنه « يمثل مدرجاً من مدارج اللغة ونقله في حياتها وهو الذي قد يؤدي إلى غموض المعنى أو دقته ، وهو وسيلة اللغة في هذا التغيير لافرق بين مشرع يعنى بالحقائق ويعكف موائماً بينها وبين واقع الحياة وبين أديب يصطنع الخلق الأدبي اصطناعاً يتم له به التصرف في اللغة في أوسع نطاق ثمرة عملية نسج مستمرة دائمة التجدد والتغير بما هو تطبيق لأصل ومبدأ وبما هو أثر في الدرس اللغوي » ^(٢) .

مناصرة النظم للاستعارة :

(١) إذا كانت المعاني الأدبية والحكمية والاستعارة لها حسن ، فإن ذلك لا يعني أنها الأصل في المزية ، فالأصل في المزية إنما يعود إلى النظم .
وإن أردنا إثبات ذلك فلننظر إلى قول إبراهيم بن العباس :

فلو إذ نبا دهر ، وأنكر صاحب وسلط أعداء ، وغاب نصير
تكون عن الأهواز دارى بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور
وإني لأرجو بعد هذا محمداً لأفضل مايرجى أخ ووزير

(١) دلالة الألفاظ - د . إبراهيم أنيس ص ١٣١ .

(٢) المجاز وأثره في الدرس اللغوي - د . محمد بدري عبدالجليل ص ١٤١ .

يعلق عبدالقاهر على الأبيات قائلاً : « فإنك ترى ماترى من الرونق والطلاوة ، ومن الحسن والحلاوة ، ثم تتفقد السبب في ذلك ، فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو « إذ نبا » على عامله الذي هو « تكون » ، وأن لم يقل : فلو تكون عن الأهواز دارى بنجوة إذ نبا دهر ، ثم أن قال : « تكون » ، ولم يقل « كان » ، ثم أن نكر الدهر ولم يقل : « فلو إذ نبا الدهر » ، ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعد ، ثم أن قال : « وأنكر صاحب » ولم يقل : « وأنكرت صاحباً » لا ترى في البيتين الأولين شيئاً غير الذي عدته لك تجعله حسناً في النظم ، وكله من معاني النحو كما ترى . وهكذا السبيل أبداً في كل حسن ومزية رأيتهما قد نسبا إلى النظم »^(١) .

من خلال هذا التعليق يثبت لنا الشيخ أن الطريقة التي استخدمها الشاعر في النظم هي السبب في ظهور شعره بهذا المستوى الجيد .

(٢) كثير من الاستعارات يروق ويعجب ، ولكن الفضيلة العالية تنشأ عن طريقة نظم الكلام الذي فيه الاستعارة ، يظهر لنا ذلك في مثل قوله تعالى : « **وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** »^(٢) ، فإن الإعجاب به ليس لمجرد استعارة الاشتعال للانتشار بل « لأن سلك بالكلام طريق ما يُسند الفعل فيه إلى الشيء »^(٣) وقد أسند الاشتعال إلى الرأس - مع أنه للشيب في المعنى - ليفيد مع اللمعان الشمول وأنه لم يبق من السواد شيء .

(١) الدلائل ص ٨٦ .

(٢) سورة مريم ، آية ٤٤ .

(٣) الدلائل ص ١٠٠ .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾^(١)

ومن الشعر قول بعض الأعراب :

الليل داج كنفه جلابه والبين محجور على غرابه

يقول عبدالقاهر : « ليس كل ماترى من الملاحة لأن جعل لليل جلاباً . وحجر على الغراب ، ولكن في أن وضع الكلام الذي ترى ، فجعل « الليل » مبتدأ ، وجعل « داج » خيراً له وفعلاً لما بعده وهو « الكنفان » ، وأضاف « الجلاب » إلى ضمير « الليل » ، ولأن جعل كذلك « البين » مبتدأ ، وأجرى « محجوراً » خيراً عنه ، وأن أخرج اللفظ على « مفعول » . يبين ذلك أنك لو قلت : « وغراب البين محجور عليه » أو « قد حجر على غراب البين » لم تجد له هذه الملاحة . وكذلك لو قلت : « قد دجا كنفه جلاب الليل » ، لم يكن شيئاً »^(٢) .

فالطريقة التي يُنظم بها الكلام تزيد من قدره وترفع من شأنه .

(٣) قد تكون الاستعارة مبتذلة معروفة ولكن النظم يرفع من قدرها ، فاستعارة

التقييد للبقاء في مكان ما مبتذلة يعرفها العامة ، ولكن المتنبي يعلي من

شأنها ويجعل لها مزية خاصة عندما يقول :

وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيذاً تقيدا

(١) سورة القمر ، آية < ١٢ > . ليس في الآية استعارة ولكن عبدالقاهر ذكرها لإفادة

الشمول .

(٢) الدلائل ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

الفصل السادس « أ »

**الاستعارة بين المعنى التخيلي
والمعنى العقلي**

لقد اعتاد القارئ لكتب عبدالقاهر أن يجد تمهيداً لكل موضوع ، وحديثه هنا عن المعاني ليس إلا تمهيداً للحكم على السرقات الشعرية . يقول : « اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق ، واقتدى بمن تقدم وسبق ، لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحاً أو في صيغة تتعلق بالعبارة ، ويجب أن تتكلم أولاً على المعاني »^(١) .

ثم قسم المعاني قسمين : عقلياً وتخيلياً .

١ - القسم العقلي :

« فالذي هو العقلي على أنواع : أولها عقلي صحيح مجراه في الشعر والكتابة ، والبيان والخطابة ، مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء ، والفوائد التي تثيرها الحكماء ، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضي الله عنهم ومنقولاً من آثار السلف الذين شأنهم الصدق ، وقصدهم الحق . . . »^(٢) .

فالعقلي ما شهد له العقل بالصحة ، وقد ذكر الشيخ أنه على أنواع ولم يورد إلا نوعاً واحداً .

ومن أمثلة هذا القسم قول الشاعر :

وما الحسب الموروث لادرّ درّه بمحتسب إلا بآخر مكتسب

(١) الأسرار ص ٢٤٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٦ .

ومن القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾^(١) وقوله النبي صلى الله عليه وسلم : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » وقوله عليه السلام : « يابني هاشم لاتجئني الناس بالأعمال وتجيئوني بالأنساب » .

والذي لاخلاف فيه أن جميع هذه المعاني من حيث العقل صحيحة .

٢ - القسم التخيلي :

« هو الذي لايمكن أن يقال إنه صدق وإن ما أثبتته ثابت وما نفاه منفي » فمن جهة العقل والمنطق لايمكن أن نقضي بصحته وصدقه ، وهذا يعني أن التخيل هنا مقابل للحقيقة ، ثم يبين أنه « مفتن المذاهب ، كثير المسالك ، لايكاد يحصر إلا تقريباً ، ولايحاط به تقسيماً وتبويهاً ، ثم إنه يجيء طبقات . ويأتي على درجات ، فمنه مايجيء مصنوعاً قد تُلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحدق ، حتى أعطي شيئاً من الحق ، وغُشي رونقاً من الصدق ، باحتجاج تُمحل ، وقياس تُصنع فيه وتُعمل »^(٢) . وقد مثل لهذا بقول أبي تمام :

لاتتكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

القضية هنا هي خلو يد الكريم من الأموال ، والشاعر ينهي عن التعجب من ذلك بالنهي عن إنكاره ، ويوضح السبب فيقول بأن الماء الكثير لايستقر على الأماكن الشاهقة الارتفاع . ومثل الأموال في يد الكريم مثل الماء الكثير على المكان المرتفع . والجمع بين هذين المعنيين لا يكون إلا عن طريق التخيل ،

(١) سورة الحجرات ، آية <١٣> .

(٢) الأسرار ص٢٤٥ .

لأن الماء شيء سيّال وبقاؤه على المكان المرتفع يستدعي وجود الحواجز التي تمنع سيلانه ، وهذا مالا يشترط وجوده في بقاء المال في يد الكريم .

ومما يُعتقد فيه الصدق بدرجة أكبر وهو على سبيل التخيل قول ابن المعتز :

والشيب كره وكره أن يفارقتي أعجب بشيء على البغضاء مودود

فكما هو معروف أن الإنسان مبغض للشيب لا يريده ، حتى إذا ما أدركه الشيب أصبح محباً له كارهاً فراقه ، وهذه المحبة لا تكون إلا عن طريق التخيل ، فالإنسان يعلم أن زوال الشيب يعني زوال حياته وهو محب للبقاء في هذه الدنيا فطبعي أن يحب الشيب ويتمسك به لحبه للحياة .

ومن ثم يصل عبدالقاهر إلى الادلاء برأيه في قول القائل : « خير الشعر أكذبه و « خير الشعر أصدقه » .

ولكنه قبل أن يوضح المقصود من هاتين المقولتين ، يبدأ ببيان موضوع الشعر والخطابة قائلاً : « وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشيبين في وصف علة لحكم يريدونه وإن لم يكن كذلك في المعقول ومقتضيات العقول ، ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحح كون ما جعله أصلاً وعلة كما ادعاه فيما يرم أو ينقض من قضيته ، وأن يأتي على ماصيره قاعدة وأساساً بيّنة عقلية بل تُسلم مقدمته التي اعتمدها بلا بيّنة كتسليمنا أن عائب الشيب لم ينكر منه إلا لونه وتناسينا سائر المعاني التي لها كره ومن أجلها عيب »^(١) .

وعلى ذلك لا يجب على الشاعر أن يصدق فيما يقول من الناحية العقلية ، وقد ضجر البحتري ممن طلب الصدق في الشعر فقال :

كلفتونا حدود منطقكم في الشعر يُغنى عن صدقه كذبه

(١) نفس المرجع ص ٢٤٨ .

أي إن الشعراء لا يطالبون بإجراء الشعر على حدود المنطق وعدم ادعاء إلا ما يقوم على العقل ، وهذا تشديد على الشعراء ، إذ إن الشاعر إذا ما جنح إلى الكذب فالذي لاشك فيه أنه لا يريد إعطاء الموصوف صفات هو على نقبضها ، لأن مثل هذا يظهر بالرجوع إلى حال المذكور والتحقيق من هذه الصفات ، فلا يحتاج الأمر إلى الحجج المنطقية ولا إلى القوانين العقلية^(١) .

ثم يتابع حديثه موضحاً قول من قال : « خير الشعر أكذبه » فيقول : « وكذلك قول من قال : « خير الشعر أكذبه » فهذا مراده لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلاً ونقصاً وانحطاطاً وارتفاعاً بأن ينحل الوضع صفة من الرفعة هو عنها عار ، أو يصف الشريف بنقص وعار ، فكم جواد بخله الشعر وبخيل سخاه وشجاع وسمه بالجبن وجبان ساوى به اللئيم ودني أوطأه قمة العيوق وغبي قضى له بالفهم ، وطائش ادعى له طبيعة الحكم ، ثم لم يعتبر ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقد دنائير وتتشردبايجه ويفتق مسكه فيضوع أريجه »^(٢) .

فمن سلك هذا المسلك . مثل إثبات صفة الرفعة لمن هو عار منها . أو العكس ، فإن ذلك لا يكسب الشعر فضلاً أو نقصاً .

ثم ينتقل إلى القول المناقض فيقول : « وأما من قال في معارضة هذا القول « خير الشعر أصدقه » كما قال :

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فقد يجوز أن يراد به خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظة تروّض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد يُنحى بها

(١) نفس المرجع ص ٢٤٩ بتصرف .

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٩ .

نحو الصدق في مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر «^(١)» .

ثم يوضح غرض من قال « خير الشعر أصدقه » بأنه يميل إلى ترك الإغراق والمبالغة على مايجري من العقل على أصل صحيح لأن أثره أحلى وأبقى ، أما من رأى بأن خير الشعر أكذبه فهو يجد فيه الإبداع والزيادة واختراع الصور .

وعبدالقاهر يميل إلى الضرب الأول فيقول : « والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وماكان العقل ناصره والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه »^(٢) .

فالحدة الفاصل بين الصدق والكذب عند عبدالقاهر هو أن الصدق : الذي لا يخالف فيه عقل ، أما الكذب : فهو الذي لا يمكن أن يقضي بصحته فيذهب فيه إلى التخيل والمبالغة .

ولما وجد التخيل لوناً من ألوان الكذب رأى وجوب خروج الاستعارة من باب التخيل لورودها في القرآن الكريم ، وحجته في ذلك « أن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة وإنما يعتمد إلى إثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره »^(٣) .

وقد مثل لهذا بقوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾^(٤) قائلاً : « ثم لا شبهة في أن ليس المعنى إثبات الاشتعال ظاهراً وإنما المراد إثبات شبهة »^(٥) .

(١) نفس المرجع ص ٢٥٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥١ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٥٢ .

(٤) سورة مريم ، آية ٤٠ .

(٥) الأسرار ص ٢٥٢ .

والحق أن المعنى هنا على طريقة العرب في كلامهم : ادعاء الاشتعال كما سبق
أن قرر عبدالقاهر ذلك في موضع آخر .

والقارئ لهذا الفصل في الأسرار يشعر بتناقض عبدالقاهر ، وذلك عند حديثه
عن القسم التخيلي فالملاحظ فيه أنه يمثل بأمثلة من الاستعارة يحاول توجيهها
توجيهات تبعتها عن الاستعارة ، مثل قول أبي تمام :

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ
سدي الرزايا إلى ذوي الأحساب
وكذلك قول الصولي :

الريح تحسدني عليـ
لما هممت بقبلـة
لك ولم أخلها في العـدا
ردت على الوجه الـردا

فالحسد من صفات الإنسان ، وقد ادعى الشاعر أن الريح تحسد - وهذه هي
الاستعارة . لكن عبدالقاهر لا يذكر الاستعارة هنا بل يقول : « وذلك أن الريح إذا
كان وجهها نحو الوجه فواجب في طباعها أن ترد الرداء عليه ، وأن تُلَفَّ من
طرفيه ، وقد ادعى أن ذلك منها لحسد بها وغيرة على المحبوبة ، وهي من أجل ما
في نفسها تحول بينه وبين أن ينال من وجهها »^(١) .

ومما يكون بنفس الطريقة أيضاً : (لمحمد بن وهيب)

وحارني فيه ريب الزمـان
كأن الزمـان له عاشق

فالمحاربة ليست من صفات الزمان ، لكن الشاعر يشبثها للزمان ادعاءً . أي
يستعير المحاربة للزمان ، وفي هذا البيت يقول عبدالقاهر إن الشاعر هنا « لم يضع
علةً ومعلولاً » من طريق النص على شيء بل أثبت محاربة من الزمان في معنى الحبيب
ثم جعل دليلاً على علتها جواز أن يكون شريكاً له في عشقه . وإذا حققنا لم يجب
لأجل أن جعل العشق علة للمحاربة وجمع بين الزمان والريح في ادعاء العدواة لهما

(١) نفس المرجع ص ٢٥٨ .

أن يتناسب البيتان من طريق الخصوص والتفصيل ، وذاك أنا في وضع الشاعر للأمر الواجب علة غير معقول كونها علة لذلك الأمر ، وكون العشق علة للمعاداة في المحبوب معقول معروف غير بدع ولا منكر ، فلذا بدأ فادعى أن الزمان يعاديه ويحاربه فيه فقد أعطاك أن ذلك لمثل هذه العلة ، وليس إذا ردت الريح الرداء فقد وجب أن يكون ذلك لعلل الحسد أو لغيرها لأن رد الرداء شأنها فاعرفه ، فإن من شأن حكم المحصل أن لا ينظر في تلاقي المعاني وتناظرها إلى جمل الأمور وإلى الإطلاق والعموم ، بل ينبغي أن يدقق النظر في ذلك ويراعي التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل . فأنت في نحو بيت ابن وهيب تدعي صفة غير ثابتة هي إذا ثبتت اقتضت مثل العلة التي ذكرها ، وفي نحو بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ثم تدعي لها علة من عند نفسك وضعاً واختراعاً فافهمه «^(١)» .

وكذا قول المتنبي :

لامامي النوى في ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذي بي من السقم
فلو لم تغر لم تزو عني لقاءكم ولو لم تردكم لم تكن فيكم خصمي

يقول عبدالقاهر : « الدعوى في إثبات الخصومة وجعل النوى كالشيء الذي يعقل ويميز ويريد ويختار ، وحديث الغيرة والمشاركة في هوى الحبيب يثبت بثبوت ذلك من غير أن يفتقر منك إلى وضع واختراع »^(٢) .

فهذه الأبيات وغيرها من قبيل الاستعارة ، وكأن عبدالقاهر لم يقرر ذلك من قبل وانصرف إلى التعليل والتخييل فقط ناسياً أن التخييل قد يدخل في بعض الاستعارات - كالاستعارة المكنية - بل نجده يذكر ماهو من قبيل الاستعارة في باب التشبيه ، فيقول : « وينبغي أن تعلم أن باب التشبيهات قد حظي من هذه الطريقة بضرب من

(١) نفس المرجع ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٩ .

السحر لا تأتي الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللطف . . . فمن ذلك قول ابن الرومي :

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد

لم يخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة عانده

وترتيب الصنعة في هذه القطعة أنه عمل أولاً على قلب طرفي التشبيه ، كما مضى في فصل التشبيهات ، فشبّه حمرة الورد بحمرة الخجل ثم تناسى ذلك وخدع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة . . . «^(١) .

ولاشك أن فكرة تناسي التشبيه هذه هي الأساس الذي تبنى عليه الاستعارة . ولعل عبدالقاهر قد عدّ هذا القول من قبيل التشبيه اعتماداً على أن أساس الاستعارة هو التشبيه .

لكن عبدالقاهر لا يلبث أن يعود ليدخل الاستعارة في التخيل فيقول : « وهذا نوع آخر من التخيل وهو يرجع إلى ماضى من تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه إلا أن ماضى معلل وهذا غير معلل ، بيان ذلك أنهم يستعيرون الصفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة ، ثم تراهم كأنهم قد وجدوا تلك الصفة بعينها وأدركوها بأعينهم على حقيقتها ، وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجز منهم على بال ، ولم يروه ولا طيف خيال ، ومثاله استعارتهم العلو لزيادة الرجل على غيره في الفضل والقدر والسلطان ، ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علواً من طريق المكان «^(٢) .

ثم يعود ليؤكد على دخول الاستعارة في التخيل قائلاً : « فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت في مكانه وكان موضعه من الكلام

(١) نفس المرجع ص ٢٦٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

أضنَّ به وأشدَّ محاماةً عليه وأمنع لك من أن تتركه وترجع إلى الظاهر وتصرَّح
بالتشبيه فأمر التخييل فيه أقوى ودعوى المتكلم له أظهر وأتم»^(١) .

ومن هنا يأتي التناقض ، وذلك أن عبد القاهر بدأ بإخراج الاستعارة من
التخييل ثم عاد وأدخلها فيه ، يقول : « إن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت
في مكانه وكان موضعه من الكلام أضنَّ وأشدَّ محاماةً عليه وأمنع لك من أن تتركه
وترجع إلى الظاهر وتصرَّح بالتشبيه فأمر التخييل فيه أقوى ودعوى المتكلم له أظهر
وأتم»^(٢) .

وكأن إخراج عبد القاهر الاستعارة من التخييل لم يكن إلا لاعتباره التخييل من
باب الخداع والكذب ووجود الاستعارة في القرآن الكريم .

لكن المتصفح للأسرار يجد أن عبد القاهر قد تناول التخييل والادعاء في عدة
مواضع وأوضح دورهما في التشبيه والاستعارة .

يقول : « وقد يقصد الشاعر على عادة التخييل أن يوهم في الشيء هو قاصر
عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه في استحقاقها واستيجاب أن يجعل أصلاً فيها ،
فيصح على موجب دعواه وشوقه إلى أن يجعل الفرع أصلاً ، وإن كنّا إذا رجعنا إلى
التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه ، ومثاله قول محمد
بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل في النور والضياء
من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعاً ووجه الخليفة
أصلاً . واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم : لا يُدري أوجهه أنور أم

(١) نفس المرجع ص ٢٩٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٩٥ .

الصباح ؟ وغرته أضواً أم البدر ؟ وقولهم إذا أفرطوا : نور الصباح يخفى في ضوء وجهه ، أو نور الشمس مسروق من جبينه ، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة ، فإن في الطريقة الأولى خلاصة وشيئاً من السحر .

وهو أنه كأنه مستكثر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة ويوهم أنه قد احتشد له واجتهد في طلب تشبيه يفهم به أمره . وجهته الساحرة أن يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤها لها لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ويزجي الخير عن أمر مسلم لاحاجة فيه إلى دعوى ، ولا إشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر وتجهم معترض وتهكم قائل « لِمَ » و « من أين لك ذلك ؟ » والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص ، وحدث بها نوع من الفرح عجيب ^(١) .

فالتخييل والادعاء من الأمور التي تجلب السرور والفرح للنفس .

وعند حديثه عن قول الشاعر :

وكانَ النجوم بين دجاء سنن لاح بينهن ابتداع

يقول : « إن طريقة العكس لاتجيء في التمثيل على حدها في التشبيه الصريح وأنها إذا سلكت فيه كان مبنياً على ضرب من التناول والتخييل يخرج عن الظاهر خروجاً ويبعد عنه بعداً شديداً . فالتأويل في البيت أنه لما شاع وتعرف وشهر وصف السنة ونحوها بالبياض والإشراق والبدعة بخلاف ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها » وقيل « هذه حجة بياض ، وقيل للشبهة وكل ماليس بحق « أنه مظلم » ، وقيل سواد الكفر وظلمة الجهل ، يخيل أن السنن كلها جنس من الأجناس التي لها إشراق ونور وابتضاض في العين ، وأن البدعة نوع من الأنواع وأن لها فضل اختصاص بسواد

(١) نفس المرجع ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

اللون فصار تشبيهه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع على قياس تشبيههم النجوم في الظلام ببياض الشيب في سواد الشباب أو بالأنوار وانتلافها بين الثبات الشديد الخضرة . فهذا ههنا كأنه ينظر إلى طريقة قوله : « وبدا الصباح كأن غرته » في بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر إلا أن التأويل هناك أنه جعل في وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد ، والتأويل ههنا أنه خَلَّ مالميس بمتلون كأنه متلون ثم بنى على ذلك ^(١) . ثم يقول في الفرق بين التمثيل والتشبيه « وأما التشبيه الصريح ، فإنك ترى صورتين على الحقيقة . يبين ذلك أنا لو فرضنا أن تزول عن أوهامنا ، ونفوسنا صور الأجسام في القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة ، لم يمكننا تخيل شيء من تلك الأوصاف في الأشياء المعقولة ، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيداً من حيث العزة والسلطان قريباً من حيث الجودة والإحسان ، حتى يخطر ببالك ، وتطمح بفكرك ، إلى صورة البدر وتُعد جرمه عنك وقرب نوره منك ، وليس كذلك الحال في الشئيين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدر ، فإنك لا تفتقر في معرفة كون النرجس وخرطه واستدارته ، وتوسط أحمره لأبيضه ، إلى تشبيهه بمداهن در حشوهن عقيق ، كيف وهو شيء تعرضه عليك العين وتضعه في قليل المشاهدة ، وإنما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التي معك ويجتلبها ، لكن من مكان بعيد حتى تراهما معاً وتجدهما جميعاً . وأما في الأولى ، فإنك لا تجد في الفرع نفس ما في الأصل من الصفة وجنسه وحقيقته ، ولا يحضرك تمثيل الأصل على التعيين والتحقيق ، وإنما يخيّل إليك أنه يحضرك ذلك ، فإنه يعطيك من الممدوح بدرجة ثانية فصار وزان أن المرأة تخيّل إليك أن فيها شخصاً ثانياً على صورة ماهي

(١) نفس المرجع ص ٢٠٩ .

مقابلة له . ومتى ارتفعت المقابلة ذهب عنك ماكنت تتخيله ، فلا تجد إلى وجوده سبيلاً ، ولا تستطيع له تحصيلاً ، لاجملة ولا تفصيلاً »^(١) .

وعلى هذا لا يكون التخيل بمعنى الكذب بل يكون عاملاً من العوامل التي تساعد على إضفاء الجمال على النص الأدبي .

ومن المواضع التي يجب ألا تغفلها من حديث عبدالقاهر عن التخيل قوله « وجملة الحديث الذي أريده بالتخيل ههنا ما ثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً »^(٢) .

فقله « ههنا » يعني أن التخيل عنده على معان متعددة منها ما هو مقابل للحقيقة ومن أمثلته :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى

الشيب كره وكره أن يفارقني

وبياض البازي أصدق حسناً

لذلك نجد عبدالقاهر يخرج الاستعارة من مثل هذا التخيل ويدخلها تخيلاً آخر وهو الذي سبق أن تحدث عنه في مواضع أخرى من الكتاب ، يقول في القسم الثاني للاستعارة في الاسم : « أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يشار إليه . . . ومثاله قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذا أصبحت بيد الشمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يداً ، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه . . . بل ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال في تصرف الغداة على حكم طبيعتها كالمدير المصروف لما زمامه بيده ، ومقادته في كفه . وذلك كله لا يتعدى التخيل والوهم ،

(١) نفس المرجع ص ٢١٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٣ .

والتقدير في النفس ، من غير أن يكون هناك شيء يحس ، وذات تتحصل «^(١)» .

وقد يزول مثل هذا التناقض إذا قرأنا ما كتبه د. الصاوي في كتابه « فن الاستعارة » يقول : « تحدث عبدالقاهر الجرجاني عن « التخيل » في غير موضع من « أسرار البلاغة » ، ولكن هذه الكلمة تتنازعها عنده ثلاثة معان ، معنى كلامي ، ومعنى فني شبيه بمعنى المحاكاة ، ومعنى بياني ، متأثراً بتقسيم ابن سينا لأنواع التخيل إلى تشبيه واستعارة ، وتركيب منهما « أما المعنى المنطقي الكلامي فإنه يضع التخيل مقابلاً للحقيقة . . . ثم يتحرر عبدالقاهر بعد ذلك من النظرة المنطقية ويجتذبه المعنى الفني للتخيل ، ولانلبث حتى نرى التخيل يأخذ معنى « المحاكاة » ، وذلك حين يتحدث عن المعاني المبتدعة في التمثيل . . . فكأن عبدالقاهر قد استعاض عن كلمة « التخيل » في معظم بحثه البياني بهذه الكلمات الثلاث (التشبيه والاستعارة والتمثيل) وهو عندما جمع هذه الأشكال البيانية في صعيد واحد قد تفرد بذلك عن غيره «^(٢)» .

أما عن الاستعارة ومكانها بين هذه المعاني الثلاث ، فإنه لا يمكن إخراجها من المعنى الأول لأن عبدالقاهر - كما يقول الباحث - قد تحرر منه .

يبقى المعنى الثاني - فني شبيه بمعنى المحاكاة - والمعنى الثالث - معنى بياني - والاستعارة عند الإمام من المعنى الثالث الذي هو تطوير للمعنى الثاني إذ يحدده في مصطلح ، فالمحاكاة التي لاتعني بالمعنى الفني ليست محاكاة بناء وإنما هي بمثابة التقليد الصرف ، والمحاكاة نفسها تحمل في إطارها المعنى الفني للتخيل لأنها تعني تجاوز الأصل ومحاولة الإضافة وهو ما ينطبق على وظيفة الاستعارة .

(١) نفس المرجع ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) فن الاستعارة ، د. أحمد الصاوي ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

الفصل السادس « ب »

تقويم جهود عبدالقاهر
بين سابقه ولاحقه

إذا كان مفكر القرن الخامس الهجري قد فكر بطريقة تشبه طريقة مفكري القرن الخامس عشر الهجري فإن ذلك يُثبت نضج عقلية عبدالقاهر ومدى عبقريته ، كما يثبت حقيقة أن تراثنا القديم ثريّ وغنيّ وأنه ليس مجرد قوالب جافة أو مصطلحات غامضة غير دالة . وهذا ما سيوضح لنا إذا ما استعرضنا آراء عبدالقاهر وآراء المحدثين في الاستعارة إذ إننا سنجد أن كثيراً من النقاد المحدثين يلتقون بعبدالقاهر في مفهوم الاستعارة .

فمن الأمور التي التقى فيها المحدثون بعبدالقاهر :

١ - فكرة النقل وفكرة الادعاء :

لقد كانت فكرة النقل هي المدخل الرئيسي للاستعارة عند كثير من النقاد العرب قبل عبدالقاهر^(١) ، ثم جاء عبدالقاهر فأقرها^(٢) ، ولكن فضّل عليها لفظ « ادعاء » لما يحمل من معاني التفاعل والاتحاد بين الطرفين ، فالاستعارة ليست عبارة عن محض نقل الاسم وإنما هي ادعاء معنى الاسم^(٣) .

إن هذا التحري الدقيق لدلالات المصطلحات لدى ناقد القرن الخامس يقابله مافعله ريتشاردز في العصر الحديث حين فضل لفظ « تفاعل » على لفظ « استبدال » يقول « عندما نستخدم الاستعارة في أبسط صورها فإنه يكون لدينا فكرتان عن شيئين مختلفين ، والفكرتان تتفاعلان معاً ، وتدعمها كلمة مفردة أو عبارة يكون معناها هو محصلة هذا التفاعل »^(٤) . فقد استغل ريتشاردز مصطلح

(١) تقدم الحديث عن السابقين في التمهيد .

(٢) رفضها مجردة .

(٣) انظر الدلائل ص ٤٣٤ .

(٤) فن الاستعارة ص ١١٧ عن A. Richards : Philophy of Rhetric-93 .

النقل « بعد أن جرّده من سذاجة التبادل اللفظي وحالته وأكسبه عمق المعنى الشعوريّ عندما نظر إلى الاستعارة بوصفها نوعاً من التفاعل »^(١) .
وتفضيل مصطلح الادعاء أو التفاعل لا يعني رفض مصطلح النقل الذي جاء لدى القدماء كابن قتيبة والرماني وغيرهم أو الاستبدال الذي جاء في العصر الحديث في معجم أكسفورد وعند الناقد ماكس بلاك^(٢) ، لأن من المسلم به « جريان الاستعارة في المعاني دلالية كانت أم شعورية »^(٣) قديماً وحديثاً وليس حديثاً فقط كما يذكر صاحب فن الاستعارة^(٤) . فمن غير المعقول أن يظن ناقد كابن قتيبة أو الرماني أو الآمدي أو العسكري أو غيرهم أن المستعير قد نقل لفظ « أسد » إلى شجاع دون أن يقصد التعبير عن معنى الشجاعة في استعارة الأسد .

٢ - الاستعارة المفيدة وغير المفيدة :

لم يلتفت القدماء في تناولهم للاستعارة غالباً إلا لما كانت تحمله من بُعد شعوريّ كاستعارة الجمل لليل في جثومه على صدر الشاعر أو الشمس للحبيبة في الإشراق ومتابعته في النفس من شعور بالبهجة والارتياح ، كما نهوا إلى أن العرب إنما استعارت المعنى « لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سبباً من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لا تفتك بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه »^(٥) معتمدين في ذلك على الذوق الأدبي لدى النقاد والبلاغيين الذين

(١) فن الاستعارة ص ١١٦ عن Mod'el : and Metaphors P.P 25 , 47 .

(٢) وانظر فن الاستعارة ص ١١٣ .

(٣) انظر فن الاستعارة ص ١١٩ .

(٤) المرجع نفسه ص ١١٩ .

(٥) الموازنة للآمدي ص ٢٣٤ .

يدركون بحكم البديهة أن الاستعارة لاتعني مجرد الجمع بين أشياء متباعدة دون رابط معنويّ هو ماعَبَرُوا عنه بالمقاربة والشبه ونحوهما . فلما وُجدَ مَنْ يُدخل في الاستعارة ما اعتمد على مجرد فكرة النقل كابن دريد حين عدّ من الاستعارة إطلاق المشفر على الشفة ونحو ذلك ، لَمَّا حدث هذا وجد عبدالقاهر ضرورة الوقوف عند هذه الفكرة وتمحيصها فتناول الأبيات التي عدّها ابن دريد من قبيل الاستعارة وخرج من دراسته لها بفكرة وجود نوعين من الاستعارة هما : غير المفيدة^(١) والمفيدة ، فإذا كان الجمع بين المستعار له والمستعار منه لمجرد التوسع في الاستعمال كانت الأولى ، وإذا كانت مبنية على التشبيه كانت الثانية .

وقريب من هذه الفكرة ماذهب إليه ريتشاردز ، إذ فرّق في كتابه « النقد العملي » بين نوعين أساسيين من الاستعارة ، الأول ماسماه الاستعارة الانفعالية ، وهي التي تعبر عن انفعال الشاعر ، والثاني استعارة المعنى الفكري أو ماسماه بالمعنى الثري إذ يقول « وفي الاستعارة التي توصل معنى ثرياً ، فلن انتقال الكلمة يكون محكوماً ومبرراً بنوع من القياس أو التشابه بين الشيء الذي تستعمل له الكلمة في العادة وبين الشيء الذي تنقل إليه الكلمة ، وأما في الاستعارة الانفعالية فلن أساس التحوّل أو الانتقال هو نوع من التشابه بين المشاعر التي يثيرها الموقف الجديد وبين المشاعر التي يثيرها الموقف العادي الذي كانت تستعمل له الكلمة »^(٢) .

وحول الاستعارة الانفعالية دار كثير من الدراسات النقدية الحديثة مما يُفهم منه عدم اعتدادهم بالنوع الآخر ، فالاستعارة الجيدة عند : جاريت وكولردج

(١) وقد رجع عبدالقاهر عن تسمية هذا النوع استعارة في نهاية الأسرار كما أوضحت ذلك في فصل أقسام الاستعارة .

(٢) فن الاستعارة ص ٣٤٤ عن A. Richards : Practical Criticism : 221 .

وماكس بلاك وجكنز وأندريه برايتون^(١) هي التي تتصل بالعالم الداخلي للشاعر ، وهو نفس مارآه القدماء^(٢) في حديثهم عن تعريفات البلاغة والشعر حين جعلوا ألفاظ اللغة وتراكيب الكلام « تجسيد للمعاني الجارية في النفوس »^(٣) . وإن كان عبدالقاهر قد تميّز بتوضيح هذا وتفصيله في حديثه عن ارتباط الألفاظ بما في النفس من معان^(٤) .

وفي حديثه عن أساس الجمع بين المختلفات في التشبيه والاستعارة وأنه أساس نفسي يقول « لم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للمتمثل . . . إلا لأنه لم يراع ما يحضر العين ولكن ما يستحضر العقل ، ولم يُعَنَ بما تتال الرؤيا بل بما تعلق الرويّة ولم ينظر إلى الأشياء من حيث تُوعى فتحويها الأمكنة ، بل من حيث تعيها القلوب الفطنة »^(٥) . وقد التقى كروتشة وفندريس مع الجرجاني « عند حقيقة أن التعبير الفعال وأن هذا الانفعال يتمثل في نظام الألفاظ في العبارة »^(٦) .

هذا ، ومن البدهي أن النقاد والبلاغيين القدماء لم يروا في الاستعارة مجرد الربط بين شيئين ، فالتداعي - كما يقول د . ناصف وهو ممن يتهم القدماء بالشكلية - « لا يعتمد على ما بين الأفكار من تشابه اعتماده على ما بين حالات الشعور من تجاوب وتناظر »^(٧) . وإذا كان من الممكن أن يفهم من كلام د . الصاوي في كتابه

(١) نفس المرجع ص ١٣٢ - ٣٠٤ وما بعدها ، و ص ٣٤٤ وما بعدها .

(٢) ابن جني .

(٣) الإعجاز البلاغي ، د . أبو موسى ص ٤٧ .

(٤) انظر دلائل الإعجاز ص ٣٥ ، ٣٨ .

(٥) أسرار البلاغة ص ١٣٨ .

(٦) الأسس الجمالية ، د . عزالدين اسماعيل ، ص ٣٣٦ .

(٧) الصورة الأدبية ص ٣٧ .

« فن الاستعارة » أن القدماء فسروا الاستعارة على أساس قانون الترابط بين الأشياء فإن هذا الفهم قد يصححه ما جاء في كتابه « النقد التحليلي » عند دراسته لقضية الصدق الفني إذ رأى أن القدماء اهتموا بما يكشف الواقع النفسي الكامن خلف الصور^(١) .

٣ - ماله مقابل وماليس له مقابل :

لقد أشار عبدالقاهر في الاستعارة المفيدة إلى قسمين : ماله مقابل - التصريحية - وماليس له مقابل - المكنية - مما أوقع بعض الدارسين المحدثين في شبهة أن عبدالقاهر قد نفى بناء الاستعارة المكنية على التشبيه حين جعلها في القسم الذي ليس له مقابل ، فأكد د . شوقي ضيف . هذا في حديثه عن فهم عبدالقاهر للاستعارة فقال إن « الاستعارة المكنية لا تقوم على التشبيه وإنما تقوم على بث الحياة والحركة في المشبه لغرض المبالغة »^(٢) ، وتردد د . الصاوي بين القول بإخراج عبدالقاهر لها من دائرة التشبيه أو بنائها عليه ، فقد قال في موضع من كتابه « فن الاستعارة » وعلى هذا فالاستعارة المكنية لا تقوم على مجرد التشبيه وإنما تقوم على بث الحياة والحركة في المشبه لغرض المبالغة »^(٣) ، فلم ينف ابتناء الاستعارة المكنية على التشبيه بل نفى أن تقوم على مجرد تطابق حرفي بين الطرفين ، ثم عاد في آخر كتابه يقول عن

(١) انظر فن الاستعارة ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، والنقد التحليلي ص ٣١٠ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ، د . شوقي ضيف ص ١٩٤ . وهذا ما جعله يُخطئ الجاحظ في عدّ بكاء السحابة من قبيل الاستعارة ص ٥٤ ، انظر الصورة البلاغية عند عبدالقاهر ، د .

أحمد دهمان ص ٥٢٣ .

(٣) فن الاستعارة ص ١٢١ .

عبدالقاهر » ثم يبدأ بعد ذلك في نفي وجود أي علاقة بين التشبيه والاستعارة المكنية ^(١) .

لقد وقع هؤلاء الباحثون في هذه الشبهة لمقارنتهم بين مفهوم عبدالقاهر للاستعارة والمفهوم الغربي لها الذي يجعل التشبيه نوعاً من المجاز والتشخيص نوعاً من أنواع الصورة ، فيفرق بين الاستعارة والتشخيص ، وحقيقة الأمر أن التشخيص لا يخرج عن الاستعارة وهو يقوم على تشبيه مضرر في النفس بذى الحركة من الأحياء .
ونستطيع أن نقول الآن أن لعبدالقاهر فضل إيضاح الفكرة دون تعقيد المصطلحات وأرى على المحدثين في تقليل الأقسام - وهو مما يعيبونه على البلاغة العربية - مع الإيفاء بالغرض ، فالقول « بيت الحياة » - كما ذكرنا سابقاً - لا يتعارض مع القول باستعارة صفات الأحياء .

والواضح من كلام عبدالقاهر أن الاستعارة التي ليس لها مقابل تعتمد على التشبيه وإن كان الوصول إليه يحتاج إلى نوع من التأمل ، وقد أكد في مواضع كثيرة أن الاستعارة - من أي النوعين - تعتمد على التشبيه ^(٢) .

٤ - النظم :

نسب بعض المحدثين لعبدالقاهر الفضل في جعل التعبير الفني لحظة واحدة لا ينفصل فيها المعنى عن الأسلوب الذي يظهر فيه ، وربطوا بين رأيه هذا وآراء المحدثين ، يقول د. الصاوي « وإذا كان هذا هو منهج عبدالقاهر في القرن الخامس الهجري وهذه هي نظرفته للصورة الأدبية التي لاتخضع لعملية الخلق الأدبي فيها للحظتين ، لحظة تأليف ، ثم لحظة تحسين وزخرفة بالاستعارة وغيرها ، فإننا نرى

(١) المرجع نفسه ص ٢١٤ . وانظر النقد التحليلي ص ٢٦٢ .

(٢) مثلاً : انظر ص ٢٠ ، ٣١ ، ٤٤ .

ناقداً مثل كروتشيه يرى أن هذا الاتجاه ملاً ساحة فلسفة الفن والجمال وخذع كثيراً من الناس»^(١) .

والحقيقة أن لعبدالقاهر فضل شرح وإيضاح نظرية النظم ، وقد سبق إلى الإشارة إليها كل من الجاحظ والخطابي^(٢) ، والباقلاني^(٣) ، والقاضي عبدالجبار المعتزلي ، ولم ينفِ غيرهم أهمية النظم^(٤) ، وهذا يبعد الرأي القائل إن القدماء قد جعلوا التعبير الفني لحظتين ، لحظة التعبير بالمعنى الخاص بالكلمة ، ثم لحظة زخرفة التعبير .

إن إرجاع بلاغة التعبير الأدبي إلى ارتباط العناصر بعضها ببعض في سياق خاص « النظم » قد جعل الصلة بين النحو والبلاغة وثيقة وهذا يعني أن الكلمة في سياق تؤدي معنى مختلفاً عنها في سياق آخر ككلمة « الأخدع » التي استشهد بها عبدالقاهر فأوضح حسننها في موضع وقبحها في آخر^(٥) ، وبالمثل فلن اختلاف الأساليب يحمل وراءه اختلافاً في المعنى كقولنا « زيد المنطلق » يحمل معنى مغايراً لقولنا « المنطلق زيد » أو « زيد ينطلق » ، أو « زيد هو المنطلق »^(٦) .

(١) فن الاستعارة ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٣٤ .

(٣) انظر إعجاز القرآن ص ٣٥ - ٥٠ .

(٤) كما ذهب د. الصاوي إلى ذلك عند حديثه عن ابن قتيبة وابن المعتز ، انظر فن الاستعارة ص ١٣٤ .

(٥) انظر دلائل الإعجاز ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٦) انظر دلائل الإعجاز ص ٨١ .

إن مآقره عبدالقاهر « يؤدي بنا إلى إدراك أن معاني النحو إنما هي ألوان نفسية تصب في قالب جميل هو السياق الذي يمنحها القدرة الفنية »^(١) ، وهذا مآقره أيضاً كروتشيه حين رفض الفصل بين الفكر والخيال في ميدان التعبير الأدبي ذلك « أننا في مجال الأدب لن نجد إلا خيالاً وشعراً وفتاً »^(٢) . لقد سبق ناقدنا بتوطيده دعائم نظرية النظم النقاد المحدثين في عمق نظرته إلى اللغة بوصفها مجموعة من العلاقات التي تعكس موقفاً نفسياً للمبدع ، فقد التقى معه كروتشيه في تصوره للعلاقة بين الحدس والتعبير حين قرر « أنه لا موضع لتصور حدس بدون تعبير كما أنه لا موضع لتصور نفس بلا بدن . . . فلن الفكرة عندنا لا تكون فكرة ، اللهم إلا إذا كان في إمكاننا أن نصوغها في كلمات ، والحن الموسيقي لا يكون لحناً موسيقياً اللهم إلا إذا كان في استطاعتنا أن نؤديه بمجموعة من الأنغام »^(٣) .

وحين يعبر عن ارتباط الشكل بالمضمون في العمل الفني بعبارة « كانت » المشهورة « إن العاطفة بدون الصورة عمياء ، والصورة بدون العاطفة جوفاء »^(٤) . ونجد فكرة النظم في نظرية الفيلسوف الفرنسي « ألن » في الفن والتي يجعل فيها من الفنان « ذلك الصانع الذي يضطر مع المادة - لغة كانت أم حجارة أم أصباغاً أم غير ذلك - حتى يجبرها على أن تثني وتنعطف تحت إيقاع دذبذباته الفكرية ! »^(٥) .

(١) الصورة البلاغية د . أحمد دهمان ج ١ ص ٦٩ .

(٢) فن الاستعارة د . الصاوي ص ١٣٦ عن المجلد في فلسفة الفن ص ٦٤ - ٦٥ .

(٣) فلسفة الفن في الفكر المعاصر د . زكريا ابراهيم ص ٥٢ ، وانظر فن الاستعارة د . الصاوي ص ١٢٦ في نفس الفكرة لريتشاردز .

(٤) نفس المرجع ص ٥٠ عن مرجع أجنبي Bieviaire d'Eathetique P. 46 .

(٥) نفس المرجع ص ١٣٥ .

وقريب منه تلك الرؤيا التي ترى أن العمل الفني ليس « مجموعة من المصادفات السعيدة أو الإشراقات الإلهية . بل هو ثمرة لقدرة تركيبية هائلة تتمثل في تنظيم الأحلام وصياغتها في صورة استيطيقية تتلاءم مع شعور الفنان »^(١) .

كما التقى مع هيربرت ريد إذ يقول « إن القوى التي تمنحها البلاغة في الأسلوب تظهر أولاً بطريقة رصف الكلمات ثم بعلاقتها بالفكره »^(٢) . وكما ربط عبدالقاهر بين اللفظة المفردة والسياق فقد ربط بين الاستعارة والنظم إذ لا يمكن تذوق الاستعارة إلا بعد العلم بالنظم لأن بلاغتها ترجع إلى علاقتها بالعناصر الأخرى في الصياغة ، وأوضح ذلك عند حديثه عن الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾^(٣) حين رد جمال الاستعارة إلى طريقة الصياغة وذلك بإسناد الفعل إلى المضاف إلى الفاعل ، ونصب الفاعل على التمييز ليفيد الشمول^(٤) .

ولما كان من غير الممكن - في ضوء نظرية النظم - التعبير عن استعارة ما بغير الألفاظ الموضوعية لها ليعطي نفس المعنى فإن ترجمة الاستعارة تفقدها كثيراً من مقوماتها ، وهذا ماذهب إليه عبدالقاهر والتقى معه المحدثون مثل : شيلي ، كولونجود ، ابرنست فيشر^(٥) ، والتقى عبدالقاهر فيها مع علماء اللغة العرب كالسيوطي وابن فارس^(٦) .

(١) مشكلة الفن د . زكريا ابراهيم عن مرجع أجنبي : Henri Delacroix :

Psychologie De L' Art " Alcan , Paris 1927 . P. 153 .

(٢) فن الاستعارة ص ١٣٠ عن مرجع أجنبي : H. Read : English Prose Style 138 .

(٣) سورة مريم ، آية < ٤ > .

(٤) انظر الدلائل ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٥) انظر فن الاستعارة ص ١٥٢ وما بعدها .

(٦) المزهر في علوم اللغة وأنواعها - السيوطي ، ج ١ ص ٣٢٢ وما بعدها .

يفرق عبدالقاهر في الترجمة بين الاستعارة المفيدة وغير المفيدة فيقول :
« ولو أن مترجماً ترجم قوله : وإلا التّعام وحفّانه .

ففسر الحفّان باللفظ المشترك الذي هو كالأولاد والصغار لأنه لا يجد في اللغة التي بها يترجم لفظاً خاصاً لكان مصيباً ومؤدياً للكلام كما هو ، ولو أنه ترجم قولنا « رأيت أسداً » تريد رجلاً شجاعاً فذكر مامعناه معنى قولك « شجاعاً شديداً » وترك أن يذكر الاسم الخاص في تلك اللغة بالأسد على هذه الصورة لم يكن مترجماً للكلام بل كان مستأنفاً من عند نفسه كلاماً »^(١) .

فاستخدام لفظ الحفّان مع عدم قصد التشبيه ييجز ترجمته باللفظ المشترك الذي يعطي معنى الصغار وذلك في اللغة المنقول إليها . أما قولنا « رأيت أسداً تعني رجلاً شجاعاً » ، فإن ترجمته توجب البحث عن لفظ يقابل لفظ « أسد » ليعطي نفس المعنى المقصود في اللغة المنقول منها ، ولو ذكر معنى « الشجاعة الشديدة » ما عدّ عمله هذا من قبيل الترجمة بل يُعد مؤلفاً لكلام جديد .

٥ - فوائد الاستعارة :

إن الفائدة الأساسية من الاستعارة تكمن في تعبيرها عن معنى ، وتصل إلى هذا الهدف بعدة طرق كالترتين أو الإيجاز أو الجدة أو الإيضاح ، ولا يفهم من قولنا الترتين أن « مهمتها التحلية اللفظية بل تصوير المعنى وإبرازه في قالب فني لا تتفصل الصياغة فيه عن المعنى ولا الصورة عن الإحساس »^(٢) .

وقد أدت نظرية عبدالقاهر في النظم إلى تقرير هذه الحقيقة ، أي ارتباط الصورة بالشعور لأن المعاني مرتبطة لديه بالألفاظ ارتباطاً وثيقاً ، ومن هنا نستطيع أن

(١) أسرار البلاغة ص ٣٤ .

(٢) الصورة البلاغية عند عبدالقاهر ج ١ ص ٤٢٠ د . أحمد دهمان .

نفهم جعله الاستعارة من محاسن الكلام فهما صحيحاً بمعنى عنصر الجمال الذي يُفهم أيضاً من قوله « أمد ميداناً وأشد افتتناناً وأكثر جرياناً وأعجب حُسنًا وإحساناً »^(١) . إن هذا الفهم الدقيق لمعنى التزيين والحسن في الكلام والذي لا يجعل الاستعارة مجرد حلية شكلية ، هو نفسه - كما يقول د. الصاوي - مفهوم « بيتي » المعاصر حيث يقول « إن التزيين هو ماتشيعة الاستعارة في النفس من أحاسيس لذيدة »^(٢) .

وقريب منه المعنى الخاص للفن لدى سنتيانا الذي « يجعل من الفن مجرد استجابة للحاجة إلى المتعة أو اللذة ، لذة الحواس ومتعة الخيال دون أن يكون للحقيقة أي مدخل في هذه العملية اللهم إلا بوصفها عاملاً مساعداً قد يؤدي إلى تحقيق هذه الغاية وهو المعنى الذي نقصده حينما نتحدث عن الفنون الجميلة »^(٣) . وهو مانع فيه حين نقول إن الخبرة في نظرية الفيلسوف الأمريكي « جون ديوي » في الفن « حين تفضي إلى خفض التوتر نتيجة للإشباع إنما تنطوي على ضرب من الإيقاع وبالتالي فإنها تؤدي في خاتمة المطاف إلى تزويدنا بإحساس جمالي هو الشعور بالرضا أو اللذة أو الاستمتاع »^(٤) .

أما الإيجاز الذي يُفهم من قوله « ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدر وتجنّي من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر »^(٥) ، فهو الذي

(١) الأسرار ص ٤٠ .

(٢) فن الاستعارة ص ٣٢٢ عن Beaty & Matchett : Poetry Statement to Meaning , P. 27 .

(٣) فلسفة الفن المعاصر ، د. زكريا إبراهيم ص ٧٠ .

(٤) نفس المرجع ص ١٠٤ .

(٥) أسرار البلاغة ص ٤٩ .

يريد المحدثون بالتكثيف والإيحاء وغير ذلك من المصطلحات التي تعني عندهم أن صيغة الاستعارة تحمل خلفها كثيراً من المعاني والظلال والإيحاءات مع الفارق بين نظريات هؤلاء الفلاسفة ونظرية ناقد القرن الخامس البلاغية ، فإن معنى الإيحاء جزء من معنى الغموض في كتاب أمبسون « سبعة نماذج من الغموض » الذي يصفه بقوله « إذن فقد يكون للكلمة الواحدة عديد من المعاني المتميزة وعديد من المعاني المرتبط أحدها بالآخر ، وعديد من المعاني التي يحتاج أحدها إلى الآخر ليكمله أو عديد من المعاني تتحد معاً ، حتى إن الكلمة تعني علاقة واحدة أو سياقاً واحداً وهذا مساق يستمر مطرداً ، فالغموض معناه : أنك لا تحسم حسماً فيما تعنيه أو تقصد إلى أن تعني أشياء عديدة وفيه احتمال أنك تعني واحداً أو آخر من شيئين أو تعني كليهما معاً وأن الحقيقة الواحدة ذات معاني عدة »^(١) . ويتفق أمبسون مع عبد القاهر في « المعيار الذي يصلح للتمييز بين أنواع الغموض الجيدة والردئية » فيقول « يكون الغموض محترماً مادام يُسند تعقيد الفكر ، أو لطافته أو اكتنازه أو مادام ندحةً يستغلها الأديب ليقول بسرعة ما قد فهمه القارئ ثم هو لا يستحق الاحترام إن كان وليد ضعف أو ضحالة في الفكر ويُبهم الأمر دون داع . . أو عندما لا تتوقف قيمة العبارة على ذلك الغموض بل يكون مجرد وسيلة لتوجيه المادة وتصريفها وذلك إن كان القارئ لا يفهم الأفكار التي اختلفت وانطبع عليه شيء من عدم الاتساق »^(٢) .

ويقول عبد القاهر : « ومن المركز في الطبع أن الشيء إذا نبيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نبيله أحلى وبالمرزية أولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف . . . فلن قلت : فيجب على هذا أن يكون التعقيد

(١) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ستانلي هايمان ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٦ .

والتعمية وتعتمد مايكسب المعنى غموضاً مشرفاً له وزائداً في فضله
فالجواب أنني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب وإنما أردت القدر الذي
يحتاج إليه في نحو قوله : فلن المسك بعض دم الغزال وأما التعقيد
فلإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي بمثله تحصل
الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع إلى أن يطلب المعنى بالحيله ويسعى إليه
من غير الطريق وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على
المقدار الذي يجب في مثله حتى إذا رمت إخراجه منه عسر عليك وإذا خرج
خرج مشوه الصورة «^(١)» .

ويتفق « لاسل أبر كرومبي » مع عبد القاهر في عد الاستعارة تعبيراً مركزاً لمعان
عديدة حين يقول « فعن طريق هذه الصور والألفاظ المركزة إلى أقصى درجات
التركيز يستطيع الشاعر التعبير عن تجاربه المحضة »^(٢) ، و يقول « لا بد لفن
الأدب أن يصبح إلى درجة كبيرة مجرد إحياء ، وإن أسمى ما يصل إليه فن الأدب
هو أن يجعل الإحياء اللفظي من القوة والسيطرة وتعد المدى والحيوية والدقة بمكان
عظيم »^(٣) .

الجدة :

إن الجدة التي في الاستعارة التي قال عنها عبد القاهر « من الفضيلة الجامعة
فيها أن تبرز هذا البيان في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً وتوجب له بعد الفضل
فضلاً ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ولها

(١) الأسرار ص ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) فن الاستعارة ، د . الصاوي ص ٣٥٢ ، عن قواعد النقد الأدبي لكرومبي ص ٤٥ - ٥٦ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٥٢ ، عن قواعد النقد الأدبي لكرومبي ص ٣٧ ، ٣٨ .

في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد وشرف منفرد وفضيلة مرموقة وخلابة موموقة ^(١) تنشأ عن اكتساب الألفاظ معاني جديدة نتيجة تفاعلها في سياق الاستعارة وهذه المعاني الجديدة - كما سبق أن ذكرنا - لا تكون إلا بالنظم الذي جاءت فيه الاستعارة ، فاستعارة « الاشتعال للشيب » مثلاً في سياق قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ ^(٢) قدمت لنا معنى الشيب في صورة جديدة ، ومثلها استعارة السيلان للأنصار في قول الشاعر :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

فالجمع بين أشياء لم يسبق لها أن اجتمعت في سياق خاص هو سر جدة الاستعارة . إن هذا الضرب من التفكير هو مانجده عند الناقد « لويس داي » حين يرى أن الجدة « هي القوة الكامنة في الصورة المكتسبة من أسلوبها أو مادتها أو هما معاً على أن تكشف عن شيء لم تحققه من قبل » ^(٣) ، وهو نفسه مانجده عند ريتشاردز في كتابيه « فلسفة البلاغة » و « مبادئ النقد » حين يرى في الأول أنه ينبغي « أن ننظر إلى الاستعارة باعتبارها كلاً متكاملاً فإن ماتقوم به من فعل التداخل بين طرفيها والتفاعل الحي ينتج معنى جديداً لم يكن له وجود بأية وسيلة أخرى . والسبب في ذلك أن كلاً من طرفيها يكتسب بداخلها دلالة جديدة » ^(٤) ، وفي الثاني أن وظيفة الاستعارة تكمن في « أن الذهن يجمع بواسطتها في الشعر أشياء مختلفة لم يوجد بينها من قبل علاقة » ^(٥) . ويقول كولردج « أن

(١) الأسرار ص ٤١ .

(٢) سورة مريم ، آية ٤٦ .

(٣) فن الاستعارة ص ٣٢٩ عن The Poetic Image 17 .

(٤) الصورة البلاغية عند عبدالقاهر - د . أحمد دهمان ، ج ٢ ص ٥٣٣ .

(٥) أبو فراس الحمداني : الموقف والتشكيل الجمالي . د . النعمان القاضي ص ٤٣٤ .

تلك القوة السحرية التركيبية التي تطلق عليها اسم الخيال. تظهر في التوفيق بين الخصائص المتنافرة أو المتناقضة وإظهار الجدة فيما هو مألوف»^(١). وحول الجدة التي تحققها الاستعارة يرى أرشيبالد مكليش أن عمق الاستعارة « يأتي من قدرتها على الربط بين الأشياء المتغايرة التي ليس بينها ارتباط والتي ماتلبث بعد انتظامها في الصورة الاستعارية أن تتحول عن مغايرتها وتباينها لتصبح شيئاً جديداً »^(٢).

وفي معنى الجدة يقول ريمون بايير « إذن فما أحرانا بأن نقول إن الفن هو أسلوبنا البشري في خلق عالم يكون غريباً عن الواقع ، عالم لا يكون مناظراً له ، ولا يمكن وصفه بأنه مجرد تعبير عنه »^(٣).

وإذا كان الفيلسوف الفرنسي « برجسون » يرى أن الجدة التي يحققها الشاعر حين « يأخذ بيدنا إلى عالم جديد »^(٤) إنما هي وليدة الحدس دون أن يشير إلى « دور الصنعة والأداء والتحقيق »^(٥) فلن عبدالقاهر قد أشار إلى دور الصنعة في تشبيهه - مثلاً - لصوغ المعاني بصياغة الذهب^(٦) ونفوس المصورين^(٧) واستخراج الدر^(٨).

(١) فن الشعر . د. إحسان عباس ص ١٥٠ .

(٢) أبو فراس الحمداني . د. القاضي ص ٤٣٣ . وانظر أرشيبالد . الشعر والتجربة ص ٨٨ .

(٣) مشكلة الفن ، د. زكريا ابراهيم . عن مرجع : R. Bager : Essais sur la methode en E sthetique , 1933 , PP. 109 , 113 .

(٤) فلسفة الفن في الفكر المعاصر ، د. زكريا ابراهيم ص ٢٢ .

(٥) نفس المرجع ص ٣٣ .

(٦) انظر الدلائل ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٧) انظر الأسرار ص ٣١٧ .

(٨) انظر الأسرار ص ٤١ .

إن الإيضاح الذي تكسبه الاستعارة المعاني فتبدو « المعاني الخفية بادية جليلة »^(١) يكاد يكون الوظيفة الأولى لأن هذا الإيضاح يشمل المعاني التي في نفس الشاعر ويريد تصويرها ولا يتنافى هذا مع جمال الصورة لأنه « لا يمكن الحكم على وظيفة صورة بأنها جلبت للفائدة دون أن تُمتّع أو أن تؤدي وظيفتها في الامتناع من غير أن يكون وراءها إفادة وتجسيد لتجربة وتوضيح فكرة »^(٢) .

والإيضاح من الأشياء التي يهتم بها الفنان « فما استبعده الجغرافي من المنظر الطبيعي ، وما أغفله المؤرخ في صميم الحدث التاريخي ، وما لم يستطع المصور الفوتوغرافي أن يلتقطه من الوجه البشري ، وما لم يفصح عنه الإدراك الحسي إلا بصورة غامضة مهوشة ، وما غاب كله أو جله عن المعرفة العلمية الموضوعية : هذا بعينه هو ما يريد الفنان أن يفصح التعبير عنه »^(٣) . هذا الإيضاح هو ما يقصده البروفسور « مونيك » حين يقول : إن الشاعر « يستخدم الصورة غالباً ليوضح ما عجزت اللغة الواضحة عن إيضاحه »^(٤) وهو « المعرفة التي يمكن استبصارها من وراء الصورة الاستعارية أو مجموعة من الصور المترابطة المتفاعلة التي تكون رؤية معينة مثيرة للانتباه »^(٥) .

(١) الأسرار ص ٤١ .

(٢) نظرية الأدب ، رينيه ويليك ، أوستن واين ص ٣٣ .

(٣) مشكلة الفن ، د . زكريا إبراهيم عن : M. Dufrenne : Phenomenologie de La

Perception Eothetique , Vol. , 1 . P. 394 .

(٤) الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ، د . صلاح عبدالحافظ عن :

Literary Criticism , P. 71 .

(٥) فن الاستعارة ، د . الصاوي ص ٣٥٥ ، عن مبادئ النقد ص ٨٩ - ٩١ .

إن ماعناه الجرجاني حين قال « وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لاتألفها إلا الظنون »^(١) ، هو أنها طريق من طرق الوصول إلى المعنى بواسطة التشكيل الفني ، وهو ما قصده « مري » حين قال عنها « إنها الوسيلة التي عن طريقها نصل بين ما هو أقل شبيوعاً وما هو أكثر شبيوعاً بين ما هو مجهول وما هو معلوم وبذلك يصبح وجودها وجوداً حقيقياً »^(٢) . وحين قال مرة أخرى « الاستعارة والتشبيه يمكن وصفهما بأنهما القياس الذي عن طريقه يمكن للعقل الإنساني أن يكتشف عالم الماهيات وأن يبين المعالم غير المحدودة للعالم »^(٣) ، هذا الإيضاح أو الجلاء للمعاني التي في نفس الشاعر بالطبع رأته أيضاً « كارولان سبرجن » ضمن فوائد الاستعارة حين قالت عنها أنها « تنقل المشاعر عن طريق الوصف التفصيلي مما يجعلها أكثر جلاءً ووضوحاً »^(٤) .

(١) الأسرار ص ٤١ .

(٢) فن الاستعارة ص ٣٦٧ ، عن : J. M. , Murry : Metaphor , 234 - 237

(٣) المرجع نفسه .

(٤) فن الاستعارة ص ٣٦٨ ، عن :

Caroline Spurgeon : Shakespear's Imagery and What it Tell Sus : P. 97. -

الفصل السابع

صلة الصورة في النقد الحديث
بالاستعارة عند عبدالقاهر

الصورة في النقد الحديث وصلتها بالاستعارة عند عبدالقاهر

إذا كان لنا أن نتحدث عن الصورة في نقدنا الحديث ومدى اتصالها بالاستعارة عند ناقد القرن الخامس - عبدالقاهر - فلن هذا يحتم علينا إلقاء الضوء على مفهوم الصورة في العصر الحديث ومفهوم الاستعارة عند عبدالقاهر ، وحيث إنني تناولت الحديث عن الأخيرة في موضع سابق فسيكون حديثي هنا عن الصورة وإيضاح معناها .

أولاً : مفهوم الصورة لغة :

« في أسماء الله تعالى : » « المصوّر » وهو الذي صوّر جميع الموجودات وربتها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها . ابن سيدة : الصورة في الشكل ، . . . قال ابن الأثير : الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته . يقال : صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته ، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته »^(١) .

إذن فالصورة لغة لاتعني الشكل الظاهري فحسب بل تخرج إلى الهيئة والصفة المعنوية .

ثانياً : مفهوم الصورة عند القدماء :

لم يُدرس هذا المصطلح عند بعض النقاد والبلاغيين القدماء بعمق وتحليل ، لأن الملكة البيانية لم تكن قد مُنيت بما مُنيت به من ضعف في العصور المتأخرة ، فكانت الإشارة إلى الصورة تكفي .

(١) لسان العرب ج ٤ ، ص ٤٧٣ .

وقد كان الجاحظ أول من نبّه إلى فكرة الصورة بالمعنى الفني وذلك في مقولته المشهورة « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير »^(١) .

وبالرغم من أن الإمام عبدالقاهر لم يوافق الجاحظ في فكرة أن المعاني مطروحة في الطريق لأنه - أي عبدالقاهر - فهم من لفظ المعاني ، المعاني الخاصة والجاحظ أراد المعاني العامة الكلية - كالفرح والحزن والعدل والظلم - فهي التي يعرفها كل هؤلاء ويشعرون بها . إذا كان عبدالقاهر لم يوافق الجاحظ على هذا الجزء ، فقد وافقه على أن جودة الكلام تعود إلى تصوير المعاني في صياغة مناسبة ، يقول : « واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا ويكفيك قول الجاحظ : إنما الشعر صياغة وضرب من التصوير »^(٢) فالصورة كما رأينا عند الجاحظ تعني الصياغة .

ثم جاء الرماني وتابع الجاحظ في مفهوم الصورة بمعنى الصياغة فقال : « البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ »^(٣) . وهذا هو المعنى الكلي ، وقد عرف أيضاً المعنى الجزئي للصورة أي : التشبيه والمجاز ، فذكر أن بلاغة التشبيه والاستعارة تكون بمدى قدرتهما على تصوير المعنى وإظهاره ، فالتشبيه على أربعة أوجه خلاصتها : عرض الفكرة المعنوية في صورة حسية ، أو عرض الصورة الحسية في صورة حسية أوضح منها .

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ تحقيق : عبدالسلام هارون .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٥٠٨ .

(٣) النكت في إعجاز القرآن من ثلاث رسائل ص ٦٩ .

أما الاستعارة فقد مثّل لها بأمثلة كثيرة توضح أن أهميتها ترجع إلى تصوير المعنى ، فيعلق على قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾^(١) بقوله « كل ما جاء في القرآن من ذكر من الظلمات إلى النور فهو مستعار وحقيقته من الجهل إلى العلم ، والاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار »^(٢) .

ومما يجدر التنبيه إليه هنا تلك الإشارة التي ذكرها الرماني والتي تفيد لجوء الشاعر أو الأديب إلى الاستعارة ليس هو من قبيل التحسين والزينة للمعنى الثري كما يدعي كثير من المحدثين صدوره عن القدماء ، يقول الرماني : « فكل استعارة لا بد لها من حقيقة ولا بد من بيان لا يفهم بالحقيقة . . . وكل استعارة حسنة فهي توجب دلالة بيان لا تنوب منابه الحقيقة »^(٣) .

وتابع العسكري الجاحظ والرماني في مفهومها للصورة بمعنى الصياغة فقال : « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكّنه في نفسه مع صورة مقبولة ومعرض حسن »^(٤) .

وقد التقى العسكري والرماني مع كثير من البلاغيين والنقاد عند هذا الرأي كقدامة وابن طباطبا والقاضي الجرجاني .

وإذا ما انتقلنا إلى عبدالقاهر الجرجاني ومفهوم الصورة عنده وجدنا فارقاً كبيراً في البحث والدراسة ، وليس في المفهوم . فقد شرح مفهوم الصورة بالمعنى الكلي أو الصياغة في النص المشهور الذي قال فيه « واعلم أن قولنا « الصورة » ، إنما هو

(١) سورة إبراهيم ، آية <١> .

(٢) النكت في إعجاز القرآن من ثلاث رسائل ص ٨٥ .

(٣) نفس المرجع ص ٧٩ .

(٤) الصناعتين ص ١٩ .

تمثيل وقياس لما نعلمه بقولنا على ما نراه بأبصارنا ، فلما رأينا البيئونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة ، فكأن تبينُ إنسان من إنسان و فرس من فرس ، بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك ، وكذلك كان الأمر في المصنوعات ، فكان تبينُ خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك ، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيئتين وبينه في الآخر بيئونة في عقولنا وفرقاً ، عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البيئونة بأن قلنا : « للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك » . وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكر منكر ، بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء ، ويكفيك قول الجاحظ : « إنما الشعر صياغة وضرب من التصوير »^(١) .

وأكد أن هذا المعنى قد عرف لدى السابقين عليه فقال : « جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا اللفظ وهم يريدون الصورة التي تحدث في المعنى والخاصية التي حدثت فيه »^(٢) .

وهذا يؤكد ماذهبت إليه سابقاً من أن دراسة القدماء كانت تلمح إلى الصورة دون أن تفصل في جزئيات مفهوما .

ويتضح المفهوم الجزئي للصورة بمعنى الفنون البيانية - التشبيه ، المجاز ، الكناية - في قوله : « فالاحتفال والصنعة التي تروق السامعين وتروعههم ، والتخييلات التي تهز المدوحين وتحركهم ، وتفعل فعلاً شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش ، أو بالنحت والنقر ، فكما أن تلك تعجب وتغلب ، وتروق وتونق وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ، ولا يخفى

(١) من دلائل الإعجاز ص ٥٠٨ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٨٢ .

شأنه ، فقد عرفت قضية الأصنام وماعليه أصحابها من الافتتان بها والإعظام لها ، كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ويشكله من البدع ، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يتوهم بها الجماد الصامت في صورة الحي الناطق ، والموات الأخرس في قضية الفصيح المعرب . . . »^(١) .

وعلى هذا يكون عبدالقاهر أول من تعمق فهم الصورة ، باعتراف كثير من المحدثين^(٢) رغم التحامل الشديد على القدماء .

وبهذا نستطيع أن نقول إن علماءنا الأجلاء قد عرفوا الصورة بمعناها الكلّي وهو - كما ذكره د. أبوموسى - « ما يدركه المتأمل في المعاني من فوارق دقيقة وشفيفة بين هيأتها وأشكالها وشيائها وملامحها وأشياء كثيرة غامضة يفترق بها المعنى في الذهن عن المعنى ، وتكون له في النفس هيئة لا تكون لغيره ، وهذا ماسماه العلماء الصورة »^(٣) كما عرفوها بالمعنى الجزئي وربطوها بأدواتها « التشبيه » ، « الاستعارة » ، « الكناية » مثلما فعل عبدالقاهر «^(٤)» .

ثالثاً : مفهوم الصورة في النقد الحديث :

يستعمل مصطلح صورة Image في أكثر من مجال واحد من مجالات المعرفة الإنسانية ، ويتخذ في كل منها مفهوماً خاصاً وسمات محددة ، ويمكن أن نحصر ذلك في خمس دلالات : (١) - الدلالة اللغوية ، (٢) - الدلالة الذهنية ،

(١) الأسرار ص ٣١٧ .

(٢) د. دهمان - د. الصاوي .

(٣) الصورة في التراث البلاغي للدكتور محمد أبوموسى ، من بحوث كلية اللغة العربية ، مكة المكرمة ، جامعة أم القرى ، السنة الثانية ، العدد الثاني ١٤٠٤-١٤٠٥ هـ ، ص ١٧٩ .

(٤) الصورة البلاغية عند عبدالقاهر : د. أحمد دهمان ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(٣) - الدلالة النفسية ، (٤) - الدلالة الرمزية ، (٥) - الدلالة البلاغية أو الفنية «^(١) .

والذي يعنينا من هذه الدلالات : الدلالة البلاغية مع التنبيه إلى أنها تعني في هذا النص بالذات « أي شكل مفرد من أشكال الكلام البلاغية يتضمن مقارنة أو علاقة بين مركبين أو عنصرين أو لنقل كل تعبير غير حرفي »^(٢) .

ونظراً لتأثر نقادنا العرب المحدثين بالنقاد الغربيين فقد رأيت الاكتفاء بإلقاء بعض الضوء على الصورة في النقد العربي الحديث .

فمن النقاد من يجعلها مرادفة للصياغة ، فيعرفها د . عبد القادر القط بأنها « الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن نظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير البياني »^(٣) .

ومن الباحثين من يجعلها مرادفة للأشكال المجازية فيعرفها بأنها (« التعبير بالمجاز » وغيره يقول « الصورة يقصد بها التشبيه والاستعارة »)^(٤) . ولا يعني هذا انفصلاً بين المعنى الجزئي والكلّي في مفهوم هؤلاء الباحثين وقد عبّر د . عز الدين اسماعيل عن هذا التناغم بين الصورة بمعنى الصياغة والصورة البلاغية - التشبيه ، المجاز ، الكناية - فقال : « بلاغة الصورة الشعرية تُعدّ أوسع نطاقاً

(١) مقدمة لدراسة الصورة الفنية : د . نعيم اليافي ص ٤١ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٦ .

(٣) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي ص ٣٤٥ .

(٤) الصورة البلاغية عند عبد القاهر : د . دهمان ص ٢٦٧ .

وأخضب من مجرد التشبيه والاستعارة وإن أفادت منهما ، فليس بين الصورة إذن والتشبيه أو الاستعارة جفوة ^(١) .

أما من حيث المسمى - بصرف النظر عن موافقتنا للنقاد في آرائهم أو عدم موافقتنا - فمن الباحثين من يفضل إطلاق لفظ « استعارة » على لفظ « صورة » فيقول « تستعمل كلمة الصورة عادة للدلالة على كل ماله صلة بالتعبير الحسي وتطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات . . . ولا يسعني إلا أن أذكر العصريين المتلهفين على تغيير الأسماء أن لفظ الاستعارة إذا أحسن إدراكه قد يكون أهدى من لفظ الصورة وأن الصورة إذا جاز الحديث المفرد عنها لن تستقل بحال ما عن الإدراك الاستعاري ^(٢) .

في حين يُفضل البعض استخدام مصطلح الصورة لأنه كما يرى « يجنب الناقد أو الدارس مشكلة التنوع والتقسيم التي يواجهها السائر على دروب البلاغة النقدية . . . بل إن النظرة البلاغية القديمة قد تفتت التعبير الواحد - في ضوء منهجها - إلى عدد من الأساليب البيانية ^(٣) .

والذي نطمئن له هو أن لفظ الصورة شامل ، فالتشبيه صورة ، والمجاز صورة ، والكناية صورة ، وكل التعبيرات إنما هي صورة ما بداخلنا من معان . وهكذا نجد أن مفهوم الصورة بالمعنى الكلي عند الجرجاني يلتقي مع مفهومها بهذا المعنى لدى المحدثين ، كما يلتقي مفهوم الاستعارة عند الجرجاني مع مفهومها لدى المحدثين في فكرة : التفاعل بين الطرفين ، ويختلف من حيث إن الاستعارة عند البعض تعني الصورة وعند الجرجاني هي جزء من الصورة .

(١) الشعر العربي المعاصر ص ١٤٣ .

(٢) الصورة الأدبية : د . مصطفى ناصف ص ٥٢٣ .

(٣) التعبير البياني : د . شفيع السيد ص ١٥٩ .

ومما يؤكد اتفاق مفهوم الاستعارة بين عبدالقاهر والمحدثين تشابه الأمثلة
المضروبة مثل - السفينة تهرث الأمواج - ، أما الاختلاف فمقصود على الألفاظ
المعبّرة عن تعريف الاستعارة .

الختام

تناولت في هذا البحث - الاستعارة عند عبدالقاهر الجرجاني - الجوانب التي اهتم الإمام بإيضاحها في الاستعارة ، وقد جمعت المتفرق في كتابين بعضه إلى بعض فبدأت بمقدمة أوضحت فيها سبب اختياري هذا الموضوع ، وهو أهمية هذا الموضوع بالنسبة للأساليب البيانية .

وقد حرصت في التمهيد على تتبع مفهوم هذا الفن عند المتقدمين على الإمام من علماء البلاغة فوجدت أن الاستعارة لم تخرج عندهم عن مجرد نقل الكلمة عن المعنى اللغوي الذي وضعت له في اصطلاح التخاطب .

الفصل الأول : مفهوم الاستعارة عند الإمام :

قسّم الاستعارة قسمين : مفيدة - مااعتمد على التشبيه - وغير مفيدة - ما لم يكن التشبيه غرضاً فيه - ثم عاد في نهاية الأسرار وأخرج هذا الذي لايفيد من دائرة الاستعارة من بعد ما تبين له الدور الفعال الذي تقوم به الاستعارة - المفيدة - في أداء المعاني وتوليد الصور ، وقد أظهرت تطور الاستعارة عنده وكيف أنها لاتعني مجرد النقل وإنما هي ادعاء معنى الشيء للشيء ، وهذا الادعاء الذي لا يكون إلا عن طريق العقل لايعني أن الاستعارة من المجاز العقلي وإنما هي مجاز لغوي لأن التجوّز في الكلمة نفسها .

الفصل الثاني : مكانة الاستعارة بين التشبيه والتمثيل :

لما كان التمثيل تشبيهاً إلا أن التشبيه أعم ، رأيت أن أجمع بين التشبيه والتمثيل عند الحديث عن الفروق بين الاستعارة والتشبيه . وقد أجاد الشيخ إيضاح هذه الفروق لكنه عاد في نهاية الأسرار وأجاز دخول بعض أمثلة التشبيه في الاستعارة ، ولو أنه اكتفى بها مالمه لائم . وهو يجعل الاستعارة التمثيلية - بناء على تعريفه للتمثيل وجعله الاستعارة التمثيلية ناشئة عنه بعد حذف المشبه - ماكان فيها الوجه

العقلي مفرداً ثم يعود فيرى أنه ينبغي أن يكون مركباً ، وذلك عند حمله الاستعارة على تشبيه التمثيل إذا حذف أحد طرفيه .

الفصل الثالث : تناولت فيه أقسام الاستعارة عند الإمام :

١ - لقد بذلت جهدي في توضيح هذه الأقسام فبدأت في القسم الأول بتفصيل ماكنت قد ذكرته في الفصل الأول ، وهو الحديث عن الاستعارة المفيدة وغير المفيدة في الاعتماد على التشبيه وأوضحته فيه دقة الإمام في التفرقة بين النوعين ، وعلى الرغم من أنها ملحوظة جيدة من الإمام إلا أنه يعدّ بعض الاستعارات المفيدة غير مفيدة ، كقول الشاعر :

فبتنا جلوساً لدى مهرنا ننزع من شفتيه الصفارا

فاستعماله للشفة أراد به تشبيه المهر بالإنسان ليزيد من وضوح العلاقة الحميمة بين القوم والمهر .

٢ - الاستعارة في الاسم والاستعارة في الفعل :

يقسم الاستعارة في الاسم قسمين : ماله مقابل - وهو ما عُرِفَ بعده بالاستعارة التصريحية - وماليس له مقابل - وهو ما عُرِفَ بالاستعارة المكنية - ويوضح الفروق بينهما .

أما الاستعارة في الفعل فهي نقل مصدر الفعل ثم اشتقاق فعل منه . ولا يفوت عبدالقاهر الحديث عن القرينة ، إذ يبيّن أن الاستعارة قد تُعرف من جهة الفاعل وقد تُعرف من جهة المفعول ، وإذا كان الفعل متعدياً لمفعولين فلن الاستعارة قد تُعرف من جهة المفعولين معاً وقد تُعرف من جهة أحد المفعولين دون الآخر .

٣ - تقسيم باعتبار الجامع والطرفين :

يُدرّج الإمام الاستعارة في هذا التقسيم من الضعف إلى القوة فيبدأ

بالضرب الأول : وهو الاستعارة القريبة من الحقيقة . وفيها يكون الجامع موجوداً في معنى المستعار والمستعار له وداخلاً في حقيقتهما من حيث عموم الجنس .

الضرب الثاني : الصفة في هذا الضرب تكون موجودة أيضاً في كل من المستعار له والمستعار منه إلا أنها توجد في جنسين مختلفين .

الضرب الثالث : يقول عنه الإمام بأنه « الصميم الخالص من الاستعارة » وهو مايكون الشبه فيه عقلياً مأخوذاً من أمور عقلية ، مع اختلاف الجنسين ، وهذا الضرب هو أعلى درجات الاستعارة إذ عنده تبلغ غاية شرفها .

الفصل الرابع :

فيه كشف عن قيمة الاستعارة والأثر الذي تتركه على المعنى مع بيان أسباب هذا الحسن وهذا الجمال .

الفصل الخامس : تناولت فيه الاستعارة ومكانتها من النظم :

فهي شيء والنظم شيء آخر لكنها ضرورة يقتضيها جمال النظم .

الفصل السادس : أوضحت فيه تقسيم الإمام للمعاني إلى قسمين :

القسم العقلي والقسم التخيلي .

فالأول ماشهد له العقل بالصحة ، والثاني مالا يمكن أن يقال إنه صدق وإن ما أثبتته ثابت ومانفاه منفي ، ثم أوضحت رأيه في قول القائل « خير الشعر أكذبه » و « خير الشعر أصدق » ومن ثم يظهر تناقض الإمام عند حديثه عن القسم التخيلي وكيف أنه أخرج الاستعارة من التخيل ثم عاد وأدخلها فيه ، وقد حاولت جهدي التوفيق بين آراء الإمام في ذلك .

ثم أوضحت جهود عبدالقاهر ناقد القرن الخامس الهجري وكيف التقى معه المحدثون في بعض الأمور مثل : فكرة النقل وفكرة الادعاء ، والاستعارة المفيدة وغير المفيدة ، وماله مقابل وماليس له مقابل ، والنظم وفوائد الاستعارة .

الفصل السابع : وفيه يتضح لنا أن « الصورة » لفظ شامل و « الاستعارة » جزء من الصورة ، وبهذا يكون مفهوم الإمام للاستعارة هو نفسه مفهومها عند المحدثين ، كما أنه يلتقي مع المحدثين في مفهومهم للاستعارة وذلك في فكرة التفاعل بين الطرفين ، مما يؤكد هذا الاتفاق تشابه الأمثلة ، أما الاختلاف فقاصر على الألفاظ المعبرة عن تعريف الاستعارة .



المصادر والمراجع

- الآمدي : أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي البصري .
الموازنة بين الطائيين .
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .
الناشر : المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان .
- إبراهيم أنيس (دكتور) .
دلالة الألفاظ
الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠ م .
- ابن الأثير : ضياء الدين بن الأثير .
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .
تحقيق : د. أحمد الحوطي ، بدوي طبانة .
الناشر : دار النهضة ، مصر للطباعة والنشر .
- ابن جني : أبو الفتح عثمان بن جني .
الخصائص .
حققه : محمد علي النجار ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ابن دريد : أبوبكر محمد بن الحسن الأزدي البصري .
جمهرة اللغة .
الناشر : دار صادر ، بيروت .

- ابن رشيق : أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي .
 العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .
 تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .
- ابن سنان : أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي .
 سر الفصاحة .
 شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ابن طباطبا : محمد أحمد بن طباطبا العلوي .
 عيار الشعر .
 شرح وتحقيق : عباس عبدالساتر - مراجعة : نعيم زرزور .
 الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة .
 تأويل مشكل القرآن .
 شرحه ونشره : السيد أحمد صقر .
 الطبعة الثالثة ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
 الشعر والشعراء .
 تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر - دار المعارف .
- ابن قيم الجوزية : شمس الدين محمد بن أبي بكر .
 القوائد .
 الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت .

- ابن المعتز : عبدالله بن المعتز .

كتاب البديع .

الناشر : دار المسيرة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م .

- ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم .

لسان العرب .

دار صادر ، بيروت .

- أبو عبيدة : أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري .

كتاب النقائض . اعتناء المستشرق الانجليزي بيفان .

طبع في مدن ليدن المحروسة بمطبعة بريل سنة ١٩٠٥م المسيحية .

- إحسان عباس (دكتور) .

فن الشعر .

دار الثقافة .

- أحمد دهمان (دكتور) .

الصورة البلاغية عند عبدالقاهر الجرجاني منهجاً وتطبيقاً .

الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م .

- أحمد الصاوي (دكتور) .

من الاستعارة ، دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على

الأدب الجاهلي .

الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الأسكندرية .
النقد التحليلي عند عبدالقاهر الجرجاني .
١٩٨٢ .

- أرشيبالد مكايش .

الشعر والتجربة .

ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، مراجعة توفيق صانع ، ط اليقظة
العربية ، بيروت ، ١٩٦٣ م .

- الباقلائي : أبوبكر محمد الطيب .

إعجاز القرآن .

تحقيق : السيد أحمد صقر .
الناشر : دار المعارف بمصر .

- البكري : أبويعيد البكري الأونبي .

سمط اللآلي في شرح أمالي القالي .

تحقيق : عبدالعزيز الميمني ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
الناشر : دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .

- الجاحظ : أبوعثمان عمر بن بحر الجاحظ .

البيان والتبيين .

تحقيق وشرح : عبدالسلام هارون ، الطبعة الرابعة .
الناشر : دار الفكر .

الحيوان .

تحقيق عبدالسلام محمد هارون .
الناشر : دار الفكر ، الطبعة الثانية .

- الجرجاني : عبدالقاهر الجرجاني .

أسرار البلاغة .

تحقيق ريتز ، الناشر : مكتبة المتنبي .

دلائل الإعجاز .

تحقيق : محمود محمد شاكر ، الناشر مكتبة الخانجي .

- الجرجاني : علي بن عبدالعزيز الجرجاني .

الوساطة بين المتنبي وخصومه .

تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم - علي محمد البجاوي .

- الحاتمي : أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي .

الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره .

تحقيق : د . محمد يوسف نجم ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، دار

صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٨٥ هـ -

١٩٦٥ م .

- ريتيه ويليك ، أوستن وارين .

نظرية الأدب .

ترجمة : محي الدين صبحي ، ١٩٨١ م .

- زكريا إبراهيم .

فلسفة الفن في الفكر المعاصر . الناشر : مكتبة مصر .

مشكلة الفن . الناشر مكتبة مصر .

- الزمخشري : العلامة جاز الله الزمخشري .

أساس البلاغة .

الناشر : دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- ستانلي هايمن .

النقد الأدبي ومدارسه الحديثة .

ترجمة د . إحسان عباس ، د . محمد يوسف نجم - دار الثقافة ١٩٨١م .

- شفيق السيد (دكتور) .

التعبير البياني .

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

- شوقي ضيف (دكتور) .

البلاغة تطور وتاريخ .

الناشر : دار المعارف .

- صلاح عبدالحافظ (دكتور) .

الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره .

الناشر : دار المعارف ، ١٩٨٣م .

- العباس : عبدالرحيم بن أحمد العباس .
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص .
- تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد . ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م .
- عبدالرحمن البرقوقي .
- شرح ديوان المتنبي .
- ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- عبدالقادر القط (دكتور) .
- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر .
- الناشر : مكتبة الشباب ، ١٩٨٦م .
- عزالدين اسماعيل .
- الأسس الجمالية في النقد العربي . الناشر : دار الفكر العربي ، ١٩٧٤م
- الشعر العربي المعاصر . الناشر : دار الفكر العربي .
- العسكري : أبوهلال العسكري .
- الصناعتين : الكتابة والشعر .
- حققه : د. مفيد قميحة ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ،
- لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- علي العماري .

- قدامة بن جعفر .

نقد الشعر .

تحقيق : د. محمد عبد المنعم خفاجي . الناشر : مكتبة الكليات
الأزهرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

- القزويني : الخطيب القزويني .

الإيضاح في علوم البلاغة .

شرح وتعليق : د. محمد عبد المنعم خفاجي . منشورات دار الكتاب
اللبناني .

- المبرد : العلامة أبو العباس محمد بن يزيد النحوي .

الكامل في اللغة والأدب .

الناشر : مكتبة المعارف .

- محمد أبو موسى (دكتور) .

الإعجاز البلاغي . الناشر : مكتبة وهبه ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م .

التصوير البياني . الناشر : مكتبة وهبه ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

بحوث كلية اللغة العربية . المملكة العربية السعودية ، مكة المكرمة ،

جامعة أم القرى ، السنة الثانية ، العدد الثاني ، ١٤٠٤ هـ / ١٤٠٥ هـ .

- محمد بدري عبد الجليل (دكتور) .

المجاز وأثره في الدرس اللغوي .

الناشر : دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ م .

- محمد زغلول سلام (دكتور) .
ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .
الناشر : دار المعارف .
- مصطفى ناصف (دكتور) .
الصورة الأدبية .
الناشر : دار الأندلس .
- نعمان القاضي (دكتور) .
أبوفراس الحمداني ، الموقف والتشكيل الجمالي .
الناشر : دار الثقافة للنشر ، ١٩٨٢ م .
- نعيم اليافي (دكتور) .
مقدمة لدراسة الصورة الفنية .
منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨٢ م .
- شروح التلخيص : وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص
المفتاح للخطيب القزويني .
وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- مقدمة	٣ - ١
- تمهيد :	
- الاستعارة وتطورها	٢١ - ٤
- ترجمة موجزة	٢٢
- الفصل الأول :	
أ - الاستعارة .	٤١ - ٢٣
ب - الاستعارة المجاز لغوياً وعقلياً	٤٦ - ٤٢
- الفصل الثاني :	
- مكان الاستعارة بين التشبيه والتمثيل	٧٠ - ٤٧
- الفصل الثالث :	
- أقسام الاستعارة ، الفروق بينها ، قوانينها	١٠٠ - ٧١
- الفصل الرابع :	
- قيمتها الجمالية والبلاغية وأسباب حسنها	١١٧ - ١٠١
- الفصل الخامس :	
- الاستعارة ومقتضيات النظم مع بيان أثرها في الدرس اللغوي	١٢٦ - ١١٨

- الفصل السادس :

- أ - الاستعارة بين المعنى التخيلي والمعنى العقلاني ١٢٧ - ١٤٠
ب - تقويم جهود عبدالقاهر الجرجاني بين سابقه ولاحقيه ١٤١ - ١٥٨

- الفصل السابع :

- صلة الصورة في النقد الحديث بالاستعارة عند عبدالقاهر ١٥٩ - ١٦٧

- الخاتمة ١٦٨ - ١٧٢

- المصادر والمراجع ١٧٣ - ١٨١

- الفهرس ١٨٢ - ١٨٣
